

فتركتها صدى العيراص وطلقت

أدبارها ورواجها أقبالها

فتظلم تعرف ما عرفت توهمنا منها ونكر واقفا إبدالها (١)

وفي ديوان مرو - إلى جانب ما تقدم - رثاء وهجاء وحكم ، وهو يندب في رثائه أخاه بكرا ، وقد مررت بنا مقطوعة له في هذا الشأن ، ومن قوله فيه أيضاً :

لا بكثر لي إذ دعوت بكرا ودون بكر ترى وطين (٢)

ومن يكام أيضاً بعض أصحابه من أمثال مصعب بن الزبير (٣) وبجي بن حمزة (٤)

وعامر بن حمزة وهو يخص الأخير بقصيدتين يتحدث في إحداها عن أرقه وانهداد كيانه على قيده الحميم الذي كان مأوى الأرامل واليتامي ومذنب المشيرة والامر أعدائها ومسقطها أيام الحن ، ويذكر كيف جاءت الركباني بنياً ثوانه ، غير أنهم لم

يؤثروا البنان فزعموا أنه كان - حين تركوه - عليلاً قد برحى شفاؤه ، والحقيقة أنهم كانوا دفنوه بواسط بعد ما قضى نحبه ، ويدعو له مرو أن يشبهه الله خير ثواب

أبنا استقر ، فقد كان امرأ صالحاً ، إلا أن شيئاً في الحياة لا يدوم ، ويصور أثر وفاته في قومه وفداحة خطيبهم فيه ، ويورد يذكر برثاء المستضعفين وأهل المنثرة

وسخطاه على أفرائه ونوى رحيه :

أرقتُ فما أنامُ ولا أنيمُ وجاء بحزني الليلُ البهيمُ

وأصبح عامر قد هد ركني وفارقني به اللطفُ الحميمُ

فكان عالنا تأوي إليه أراميلنا وطائلنا اليتيمُ

(١) شعر عروة ١٥٠ وتاءجت : تبيجت ، والبوارح : جمع البارح ، وهي الرياح الحارة ،

وتخفو : تخمو ، والعبا : ريسح شرقية ، وتقالها الدبور ، ويسكن : يصفن ، والرواثم : النوق ، والوالهة : الحائرة ، وبخبة : سحابة يجر مطرها ، ودماه : طاقتة ، وكلية السحاب : أسفله ، وواية السكلى : مطرة ، والحي : السحاب المتعرض ، وإبدالها : تيرها . (٢) شعر عروة ١٠٢ .

(٣) كتاب لسب قرين ٢٤١ . (٤) شعر عروة ٣٤٢ .

ومدرة خصمتنا في كل أمر له تجذو على الر كنب الخوصوم

وقيمتنا على الجلي مجيد إذا ما الكرب أقطع من يقوم

أنى الر كبان بالأخبار تهوي بها وبهم حراجيج هجوم

فقالوا قد تركناه سقيماً فما صدقوا ولا صح السقيم

فمز علي أن القوم أبوا وأنت بواسط جددت مقيم

جزاك الله خيراً حيث أمست من البلدان أعظمك الرميم

فنعتم الشيء كنت وليس شيء من الدنيا وما فيها يدوم

تضعض جمل قومك واستكانوا

لقد كنت إنته حدث عظيم

قضى نجبا فبان وكان حصناً يعوذ به المدع والترم

يريش الأقرين ويطيبهم ولا يبري كما يبري القدوم (١)

وفي القصيدة الثانية تهمل دموعاً ويشق الحزن لتولي عامر بن حمزة ، فقد

كان يسد الثلم ويدفع الحاجة ، ولكنه نوى بالمرار رمساً غريباً نائياً عن نوى

الزبير ، ويسترسل في مدح قومه الذين ورثوه المسكرم ، ثم ينهي أبياته بما كان بدأها

من نرف الدموع ونذب خيال عامر (٢) .

(١) شعر عروة ٣٦٩ ، والطف : البر ، وهو مصدر وصف به ، والباء في « فارقي به »

للتبريد ، أي يخلع منه شخصاً كما هو آخر ، والتال : التيات ، والمائل : الفقير ، والمدرة : الفاع

وتجذو : تجنو ، والجلي : الأمر العظيم ، والحراجيج : الأبل الطوية ، وواسط : مدينة بين الكوفة

والبصرة ، والجدت : القبر ، والمدع : المستضعف ، والقرين : ويريش الأقرين : يصلح

حليم ، ويطيبهم : يبرم . وقد عقب راوي الآيات علياً بقوله : « وهي أكثر من هذه » انظر

شعر عروة ٢٧٢ . (٢) المصدر السابق ٣٩٣ .

ولعروة أبيات أخرى في تثنى عشيرته الذين أتى عليهم الفتنة، وحق عليهم
 أن يتقدموا فيه، وبذروا به بنجر ح الآلام في ابدال سوء بدم (١)، ولعل من
 المحتمل أن يتثنى بالمشيرة القافية رهط ابن الزبير، بحيل هواه، وأبدلهم بني
 أمية إثنان غلبتهم على هؤلاء وهؤلاء، إذ لم يكن نسيباً أخلاقه منهم كصعب
 وطاهر، كما لم يكن استوى رضاه عن وارثهم، وأغلب الظن أن هذا الرضا قد
 ابتداء حين استخلف عمر بن عبدالعزيز، ومروفاً أنه كان قبل ذلك على المدينة،
 موطن عروة، وليس بعيداً أن يكون عمر قد أخذ عن ابن أذينة شيئاً من السلم
 والفقه، أيام توليه المدينة أو سكنه فيها، مما آلف ذات بيتيها، ونجد في
 ديوانه بيتين يرثيان أبا حفص يقول فيها:

أنا البريدُ التليُّ فراعنا له خبِرُ شفِّ الفؤادِ فأنا
 بموتِ أبي حفصِ فلا أبَ راكبُ
 بموتِ أبي حفصِ أخبُّ وأرهما (٢)

وإذا انتقلنا إلى شعر المهجاء عند عروة وجدناه لا يحدد أسماء الذين يبيح
 مناقبهم، وأكثر ما في ديوانه من هذا المرض استمراراً لخصاله المدينة وأعماله
 القديمة، كأن يستنكر ترثيص من غيره عروة وقوم عروة بالخطأ، وكيد لحم، وقذفه
 خيالهم، وحرصه على سبهم، بعد أن وسعوا عليه فاعتنى من عيلة، ونافق
 من ضعف، لكنّه ورث قملة أبيه من قبله، فكلاهما ليس له عنهم غشية،
 وكلاهما يحدد مع ذلك فضلهم عليه:

ولقد عجبتُ لحاينِ متمرّضٍ أبدتْ عداوتَهُ لنا استغشاشاً
 عبْدُ أساءَ بسبِّه أربابَهُ منهم أصابَ مطاعماً ورياشاً
 تثنى الكرامَ ولست بالبعجدم حتى تحولَ رركه أكاشاً

(١) هـ ١٧٩. (٢) هـ ٣٧٧ وراعنا: أفرعنا، وشف الفؤاد: لدغ،
 وأعم: زاد، والمجب والرسم: ضربان من السير السريع.

ولو أنه يوماً تكلف شأؤهم أبحى به تحب السباق جراشا
 أو كان أصحداً في جبال قديمهم لاقى بها رتباً وكابد فاشا
 نعيشوا مفانيرهم فأصبح كافرأ حسن البلاء ولم يكن نماشاً
 وكذلك كان أبوه يفعل قبله وكلاهما في الدهر كان قاشاً (١)

وعلى هذا النحو يزجرُ ذا شنانٍ طاف به وسامه (٢)، ويرمي قوماً
 تنشوه بالمد، واهدوه النية، فيكشف ختام وفلة تقوام وربأه أن يؤاخذم
 بجهلهم، ولو شاء لأزلهم قدر منازلهم ونحاشم عن ذوي قرابته الذين تولوم أو ملكوم (٣).
 وكما يثنى أبو طمر بن أذينة على اعدائه سوء خصاله وقبح سنائهم
 يأخذم أحياناً أخرى بالهزء والتبكيك المستخيف بشانهم فيقول في حساده:

لا يُبمد الله حسادي وزادم حتى يموتوا بداه في مكنون
 لآتي رأيهم في كل منزلة أجل قدرأ من اللاني يحبوني (٤)

وقد يبادر منذ ان يحظر لخصومه أن يأكلوا لحمه فيلوح لهم بذراية قوله
 لهمم بكتفون وبتنون، يقول عروة:

نبتت أن رجلاً خاف بعضهم شمني وما كنت للأقوام شتاما
 فإن يكونوا براء لا تطيف بهم مني شكاة ولا أصمهم ذاما
 وإن يحينوا أقل قولاً له أتر باق يمعتي قراطيساً وأنلاما (٥)
 ويبدو أنهم كفتوا عن أكل لحمه حقاً، فلم تنتعن في هجائه أقلام ولا

(١) شعر عروة ١٨٢ والحالين: القريض، والترض: التصدي، واستغشاشاً: من الشش،
 والرياش: المال والمصعب، والرك: الاضناف، وأكاشا: شيئاً قليلاً أو فانياً، من الانكماش وهو
 التفض، وجراشا: مدفوقاً، والنأش: الأخر والتباعد، ونشوا مفانيرهم، رفعوه وسدوا خطه،
 والكافر: التبر، وقاش المي: متاعه (٢) شعر عروة ٢٥٥ (٣) المصدر السابق ٢٩٦
 (٤) المصدر السابق ٣٩٠. (٥) شعر عروة ٣٨١ والذام: العيب والتم، ومني: يجب

قراطيس لقفلة ما ترك في هذا الفرض ، وليس من شك أن من دواعي ضهور الحجاء عنده استمساكه بعمرى الحكمة ، وهو استمساك لا يدل عليه نفقهه وعلسه فحسب ، بل أيضاً ما في ديوانه من أبيات في هذا الشأن .

وتعني حيككم أبي طامر في ثلاثة أنماط أولها نظرات تأملية في الكون والحياة والإنسان ، وهي نظرات تنفذ إلى أن الفتى مثل الملال ، يتألق حيناً ثم يجبو (١) ، وأن العيش يتقلب أفانين أطواراً أطواراً ، من يسر وعسر ومن لين وشدة (٢) ، وأن الناس في غفلة عن مصيرهم المحتوم ، يتاعون إذا رأوا الجنائز ، ثم لا يلبثون ان يمودوا لنفلهم الأول (٣) .

والتمط الثاني من حيكمه نصائح تنهى عن المنى (٤) ، وتدعو إلى تمائل المعاملة ومبادرة المدون بما لو تمكن أن يفعله لما تردد فيه وتمجيد البير لمن يستحقه ، ويوفيه (٥) . والتمط الثالث عيبرٌ صالحة أن تضرب أمثالاً كأن يقول :

والأرض فيها عمما كرهت إذن منادح واسع ترعها (٦)
أو يقول :

إن الدنيا وزهرتها نعمة لا بد منصرمة (٧)

أو يقول :

رأيت الفتى يرجو الرجاء ودونه اقاء التي منها الفتى غير واثيل (٨)

ولمنا لاحظنا من خلال الشواهد المقدمة من أشعار مروء اتحاذها -أوليين متباين ، الاسلوب الأول يعنى فيه من شأن الجزالة الرصينة إلى ابد غاية ، فوجد العبارة المتحركة والصياغة القوية ، كما في قوله :

إن قريشاً هم الذرى تسباً وقائل الصدق من يفخمها

- | | |
|-------------------------|--------------------------------------|
| (١) المصدر السابق ٣٤١ . | (٢) المصدر السابق ١١٨ . |
| (٣) المصدر السابق ٣٩ . | (٤) المصدر السابق ٣٣٣ و ٣٤٥ . |
| (٥) المصدر السابق ٣٤٤ . | (٦) المصدر السابق ٩٣ . |
| (٧) المصدر السابق ٩٨ . | (٨) المصدر السابق ٢٥٢ وواائل : تاج . |

تعلم الناس ككأما جهلوا ولن ترى عالماً يملها
يمنعها الله أن قذل وما قدم من فضلها ويمصها (١)

فهو يؤكد لجملة الطيرية بأن وضير الفصل «م» ، والجملة الاسمية «وقائل الصدق من» يفخمها ، وتكرار «تعلمت» ، ويحشد ألفاظها تبشيراً عالٍ مثل «يفخمها وكلمها» ، وقدم «وحروفاً مدوية الرنين كتنصيف إن» وبمليهم .. وقلقلة الادل الساكنة في الصدق ، وتفخم الراء قبل اللد «رى» في الذرى ، وتكرار الحروف الجهرية كالقاف واللام والميم ، وكل ذلك ينسجم مع نعمة الفخر المحمدي الصاخة في الأبيات .

وكثيراً ما يضمن هذا اللون من تسييره في الرصانة حتى يبلغ حد الإغراب ، ومن خير ما يمثل ذلك في شعره قوله بمد وصف فلاة سحيقة تشمل بقبض الحجر :

جاوزتها بيباب ذات برابة

ضمت عرى عقيد النسوع محالها

سرح إذا رُميت بها بجهولة حمرت المنازل فارقت أميالها

في كل خاشعة الحزون مضلة كالترس تنسف سبلها وجبالها

تهدي مواجع قد أضر بها الوجى

بشد المراح وأملت أعمالها

يخبطن في الخرق البعيد إذا وهت

أخفافهن من السريح نمالها

فلذا بدت أعلام أرض جاوزت أعلامها فرمت بها أهوالها

(١) شعر مروء ٨٩ .

حتى رَجَمَتْ بِهَا وَقَدْ أَكَلَتْهَا لَاقِ إِدْرَانَ مُطَرِّدٍ إِكْلَانَهَا
مِثْلَ الشَّجَارِ حَشَاشَةً مَنُوكَةً قَدْ كَانَ ذَلِكَ قَيْدَهَا وَعِقَالَهَا^(١)

والنص يتحدث عن عبوره الفلاة على ناقة نشيطة جتدة شدة عليها أوزمة رحله، فكانت إذا أريدت للصحراء الواسعة الجرداء تجاوزتها، وتحمّلت وعرها، وفتحت سبلها وجلبها، وتقدمت النوق اللاعبة بمد الخيفة، الكالة عقب النشاط، التمسّقة في المواء متشوّقة أخفاؤها من المرعى، على حين كانت ناقة كلاً استقبلت مرحلة جديدة طوتها، واستدرت مخاوفها ومصاعبها، إلى أن نصبت هي أيضاً وأرهِقت، واستمرت نصابر - بمد نصبا وإرهاقها - يوماً من طوال الأثام، فرجعت واهبة حشرى كأنها في العود من شيدة نخولها ونفولها، وذلك ما قيّد حركتها وعرق قلبها عرقلة.

وأغلب ما يلقاها أسلوبه الشرب في قصائده التي تنحو منح القصيد الجاهلية لا في طولها الذي قد يبلغ ستة وثمانين بيتاً^(٢) غسب، وإنما أيضاً في هيكلها الذي يشبه الهيكل القديم للقصائد شياً تاماً، وأقرب مثال لها قصيدته الخامسة، وهي أطول ما في شعره، وهي التي تبلغ ستة وثمانين بيتاً، وهي التي اخترت منها النص الأخير. وبتنتجها عروة بالنزل بسُمّيدة، فيذكر كيف صرمت مودتها مستجيبة لأفوال الوشاة ثم يصور محاسن خيلتها واشتياقه إليها، ويتحدث عن عفاء ديارها وتفرق الرياح في أنحائها وإحالة لأقطار مالمها، وإيوائها من بمد سمدى ضروب الحيوان كالبعير والآرام والزفرات والحجر الوحشية، ثم ينتقل إلى النخر فيسأهي بقدرته على قطع المغازة الملتبّة من الفيض، ويصف الناقة التي تطويها، وبعده ماثره

(١) شعر عروة ١٦٥ والهباب: النشاط، وناقة ذات براية: ذات شحم ولحم أو ذات بناء على السير، والنسج: السير تقد به الرحال، والحالة: القفارة المتضدة في الصل، وسرح: سريّة، ومجھولة: مغازة لا أعلام فيها، ومرت: فلاة لا نبات فيها، والحزن: ما غلظ من الأرض، ونصف تستخدم أي قطع، ونهدي: تسبق، ومواعج: مضطربات متشويات، والوجى: الألم، والمراج: النشاط، والحرق: الأرض الواسعة. ووعت: تحرفت واشقت، والسريح: الرعي، والأعلام: الجبال وأكلتها: أعبيتها، وإدرا: طلب أو نشاط، والمطرود: اليوم الطويل، والشجار: عود البودج، والحشاشة: بية الروح. ٢ (٣) انظر شعر عروة ١٣٩ وما بعدها.

القديمة له كاللحزم والقوّة والبيان واللسن والسخاء والخشكة وفحولة الشعر وحيدة الفطنة وسلامة الصدر وطيب المشعر.

والنمط الثاني من أسلوب عروة أقل من النمط الأول، وهو يؤثر السهولة الواضحة المستبينة فيقول في الرثاء:

مضى يحيى بن حمزة حين ولّى وغائته عن الإخوان عُجولٌ
حميدَ الودّ لا يُزري عليه مؤاخٍ في الإخاء ولا دخیلٌ^(١)
وكتيراً ما يرق هذا الأسلوب ويلين ويسدس كما في قول عروة:

بيض نواعيم ما هممن بريّة كظباء مكة صيدهن حرامٌ؟
يُحسبن من لين الكلام زوانياً ويصدهن عن الحنا الإسلام^(٢)

ويلاحظ أن كثيراً من شعره الرقيق إنما هو مقطوعات قصيرة لا قصائد طويلة وفي مقطوعات تحمل علامة الموسيقى التي اشتغل بها أول حياته، وتؤثر - مثلها - الأبيات الممدودات لا المطوّلات التي ترهق الحناجر^(٣).

وقد استحسن النقاد القدماء كلا أسلوبيه معاً، وسلكوه في القدمين حيث أهل الترييض، وعداه الذهبي والكتيبي من فحول الشعراء^(٤)، وقال الأبيسي كما قال البكري: «كان شاعراً مجيداً»^(٥). وإذا كانوا أخذوا عليه شيئاً فإنما هو أبيات قليلة استكروها تفاوت نسجها، وذلك مثل قوله:

«واستقّ العدوّ بكأسه واعلم له بالغيب أن قد كان قبل سقاكها
واجزّ الكرامة من ترى أن لوله يوماً بذلت كرامة لجزاكها
فقوله في البيت الأول: «واعلم له بالغيب، كلام غث، و«له» رديقة الموضع

- ١) شعر عروة ٣٤٧. ٢) شعر عروة ٣٧٤ وانظر علمته، والحنا: الفحص.
- ٣) وانظر شعراً لعروة غني به في الأغاني (البيته المصرية) ٣٢١/١٨ و ٣٢٨ و ٣٣١ و ٣٣٣.
- ٤) تاريخ الإسلام ١٠٩/٥ وفوات الوفيات ٧٤/٢.
- ٥) سبط الكلب ١٣٦ والمتطرف ٢٤٨/٢.

بشعة المستمع، والبيت الثاني كان مخرجه أن يقول: واجز الكرامة من ترى أن لو
بذلت له يوماً كرامة لجزاها. وكقوله أيضاً:

وأعملت المطيبة في التصاني رهيص الخف دامية الأظلل
أقول لها هان علي فيما أحب^١ فاشتاؤك أن نكلتي؟
يريد أقول لها هان علي فيما أحب^٢ أن نكلتي فاشتاؤك؟^(١)

هـ - سابق البربري:

لم تحتفظ المماثر بشيء واف عن حياة أبي سعيد سابق بن عبد الله البربري،
الذي كان يقطن الرقة فلقب أيضاً بالرققي، وذلك ما أدى ابن مدي أن يجعل
الذين تسموا بسابق بن عبد الله الرقي ثلاثة، اثنان منهم محدثان، والثالث هو سابق
البربري الشاعر الزاهد الذي نفى أن يكون راوياً مثلها^(٢).

وقد تمسّب ابن حجر هذا الرأي، ويثبت أن من دعي بسابق بن عبد الله
الرقي اثنان وليسوا ثلاثة، وأن الآخر هو سابق بن عبد الله فحسب، وأن أحداً لم
ينسب إليه الرقة^(٣)، ورد قول ابن عدي الذي ينفي عن الشاعر سابق بن عبد الله
الرقي البربري التحديث، وأثبتته له^(٤). ومثمن تمسّبوا رأي ابن عدي أيضاً الحافظ
ابن عساكر، وقد ذهب إلى من معني سابق بن عبد الله الرقي إنما هو واحد فقط،
وأنه سابق البربري الشاعر نفسه، وأخرج له أحاديث رويت عنه^(٥).
وسواء كان الرقي شخصاً واحداً أم اثنين أم ثلاثة فإن ما مهم هذه الدراسة
أن الشاعر سابق بن عبد الله البربري الرقي كان يروي الحديث، كما ذكر المؤرخون،

(١) عبار الشعر ٤٠ و ٤١ وانظر الموشح ٢١٢ و ٢١٣؛ والبيتان الأولان في شعر عمروة ٢٤٤
والبيتان الآخران من ٣٥٤ ورهيص: مكالمة، والأظلل: ما عمت منم الثالثة.

(٢) انظر ميزان الاعتدال ١٠٩/٢ ولسان الميزان ٣-٢-٣.

(٣) لسان الميزان ٣-٣، هنا وقد ذكر ابن عساكر أن رباح بن الجراح الموصلي، أئيد سابق
ابن عبد الله الذي لم يقب بالرققي، روى عنه حديثاً في بغداد سنة ست وأربعين ومائتين، مما يتضح
بسابق شيخ رباح عن مصر سابق بن عبد الله الرقي. انظر (تاريخ دمشق، نسخة الدار، ٣/١٥).

(٤) لسان الميزان ٣/٣، وانظر مشاهير علماء الامصار (١٤٧٨). (٥) تاريخ دمشق ٢/١

وأنه كان إمام مسجد الرقة وقاضي أهلها^(١)، وأنه من أجل ذلك، بسلك في
الشراء الفقهاء.

وعلى نحو اختلافهم في اسم أبي سعيد اختلفوا كذلك في أصله، فمنهم من عدّه
من البربر المغاربة^(٢)، ومنهم من جعله البربري، لقباً محضاً، وذهب إلى أنه
مشرقي^(٣)، ومن الباحثين المعاصرين الذين مالوا إلى القول الأول عبادة كنوت
فهو يؤكد أن من معني بالبربري والرققي إن هو إلا سابق نفسه^(٤)، ويميل إلى
أنه مغربي بربري، وأنه هو سابق المصطفي الذي قال حين قتال البربر للروم بقرقيا
أيام سليمان بن عبد الملك:

أيا معشر الروم ارحلوا عن بلادكم واخلوا لنا عنها بطي المراحل
فقد قصدتكم بربر^١ بسيوفا وأحلافها أهل الرماح الدوابل
قبائل من بربر^٢ قيس وخندف وذي يمن في عزها المتناول^(٥)

وقد يؤيد هذا الرأي الذي يرجع بسابق إلى أصله المغربي ما أشارت إليه
الروايات من أنه كان من موالي بني أمية^(٦)، أو كان مولدًا للوليد بن عبد الملك على
وجه التحديث^(٧)، وليس بعيداً أن يكون جميل في أثناء المد الإسلامي في المغرب
إلى الوليد، فألقه بمواليه، وكان قوي الإحساس ساداً التأثير فتدقق على لسانه
شعر الزهد والرائق والمواعظ والأمثال، حتى إذا استخاف عمر بن عبد العزيز
استقدمه واستمع إلى فريضه وارتاح له وأكرم مثواه^(٨)، وكان عمر فقهاً عالماً فهداه
إلى الرواية والتفقه، وكان سابق نبياً ذكياً فحذق مادته ورجع فيها.
ولم تفسر المصادر إلى سنة وفاته، إلا أن ولده للوليد بن عبد الملك،

(١) المصدر السابق ٥/١٥ وانظر سابق البربري لعبادة كنوت في جملة نوح اللغة العربية
بدمشق، المجلد ٤٤ ج ١/٤١. (٢) لسان الميزان ٣/٣ وخزانة الأدب ١٦٤/١.

(٣) خزانة الأدب ١٦٤/١، وانظر القند الفريد ٢٥٠/١ إذ ينسب إلى قبيلة بني الينية.

(٤) المجلة السابقة ٣٠/١. (٥) المجلة السابقة ١٨/١ و ٣١. (٦) خزانة الأدب

١٦٤/١. (٧) تاريخ ابن عساكر ٥/١٥. (٨) خزانة الأدب ١٦٤/١.

ومجالسته عمر بن عبدالعزیز، وأخذہ عن علماء الشطر الاول من القرن الثاني (١) ،
ورواية الأوزاعي المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة عنه (٢) ، كل ذلك يرجح أنه
توفي في نهاية العصر الأموي، أو مطلع الحكم الباسي .

وقد بقيت لسابق عدّة قصائد ومقطوعات تمكّن الأستاذ عبده أن
يجمع منها ١٦٩ بيتاً، وهو يعتقد أنه كان لسابق ديوان شعري يضم كل فتاجه ،
غير أنه اقتُفد (٣) . ومما يمكن فقد كانت تحظى أشعار سابق في عصره وبند مصره
بشهرة واسعة ، وكانت تقع من أنفوس الناس موقفاً حسناً ، حتى كان عمر بن عبدالعزیز
يكي إذا سمع بعضها (٤) ، وكان أبو الحسن محمد بن مصعب المحدث يثيب من يعرف
شعر سابق ؛ فقد روي عن أحمد بن محمد الانصاري أنه كان هو وجماعة عند ابن
مصعب فقال : « من أخبرني لمن هذا الشعر فله ثلاثون حديثاً ، وكان مهم رجل
يعرف الشعر ، فأنشد ابن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر
فأخبرم راوي الشعر أنه لسابق . فأنشد ما بعده ؛ فأنبأ الراوي فحدثهم
ابن مصعب بالأحاديث الثلاثين (٥) .

وقد وقف الرواة على شعر سابق وتدارسوه وسلكوه مع آثار محمود الوراق
وصالح ابن عبدالقُدوس ، قال ابن المبرق : « وشعر محمود كثير ، وأكثره أمثال وحكم
ومواعظ وأدب ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبدالقُدوس وسابق البربري (٦) .
والناظر في شعر سابق يجد سورة واضحة للرياضة النفسية التي أخذ بها
المسلمون أنفسهم مستجيبين لدعوة القرآن والسنة إلى نزع الأغلال الثقيلة التي تصفد

١ من هؤلاء العلماء مكحول التوفي سنة ١١٣ وريعة بن عبدالرحمن التوفي سنة
١٣٦ وداود بن أبي عبد التوفي سنة ١٣٩ واللاء بن عبدالرحمن الحرقي الذي شهد أول خلافة أبي
جعفر وأبو حنيفة التوفي سنة ١٥٠ انظر اسانئده وتلامذته في ابن عساكر ٢/١٥ و ٦ ولسان
الميزان ٣/٣ وتاج العروس ٣٧٦/٦ . ٢ انظر فتا رواها الأوزاعي عن سابق عن مكحول
في كتاب الجهاد لابن المبارك ١٨٢ . ٣ مجلة مجمع اللغة العربية م ٤٤ ج ١٩/١ و ٢٠ .
٤ حلية الأولياء ٣١٨/٥ وتهذيب ابن عساكر ٣٩/٦ . ٥ تاريخ ابن عساكر ٨/١٥
٦ طبقات الشعراء ٣٦٢ .

بها الدنيا أعناق الراكنين إليها ، ومن آثار هذه الرياضة حثه على ذكر الله ،
يقول سابق :

والذكر فيه حياة للقلوب كما يجني البلاد إذا ما ماتت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً وهل يلين لقلوب الواهظ الحجر (١)

ومن آثارها دعوته إلى التزود بالتقوى وما تدفع إليه من عمل زرع صالح (٢) ،
وتصحه بأخذ الأنفوس بالهدى والرشاد واجتناب الماسي ولو سمرت والمفة
عن أوطار الدنيا ومطامها :

وفي الهدى عبر تشق القلوب بها

كالنيت ينضّر عن وسنيه الشجر
والرشد نافلة تهدي لصاحبها والتي يكره منه الورد والصدور
قد يوبق المرء أمر وهو يحقره والشئ بانفس ينمي وهو يحقره
لا يشبع النفس شيء حين تحرز

ولا يزال لها في غيره وطر
ولا تزال وإن كانت لها سعة لها إلى الشيء لم تظفر به نظير (٣)
ومن خير ما يدفع النفس إلى هذه الرياضة الروحية أن يتدبر الإنسان
مصيره ويتفكر في عاقبته ، فإن الموت واقع ، والحياة الدنيا لا بد منصرمة ، والحساب
دقيق ، والمذاب شديد :

تأوني هم كثير بلائله طروقاً فقال النوم هي غوائله

١ شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٤١ . ٢ المصدر السابق ٣٣٩ .
٣ المصدر السابق ٣٣٩ والوسمي أول المطر ، ويوق : يهلك .

فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت باب أنت لا بد داخله
 أيامن ريب الدهر - بانفس - واهن
 نجيش له بالقطعات مراحله
 فلم أر في الدنيا ، وذو الجهل غافل ،
 أسيراً يخاف القتل واللهم شاغله
 فباله يفندي من الموت نفسه ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله؟
 ولا يفندي من موقف لورمي الردي
 به جبلاً أضحت سراباً جنادله^(١)

ومن أسباب هذه الفديحة من هزل المتعاد مكابدة السهر على طريق الآخرة،
 كما يكابده من أجل الدنيا وحطامها ، بذلك يتداوى القلب ويصح الضمير :
 لو كان يشهر عيني ذكر آخرتي كما يؤرقني للماجل السهر
 إذا لداويت قلباً قد أضر به

طول السقام وهيبض العظيم ينجبر^(٢)
 وعلى هذا النحو تستفيض حيك أبي سميد وتستردل ، وقد تبدو لأول
 وهلة أنها لا تنقاد لسياق جامع ، لكن من تدبرها أدرك انتظامها في سلك نفسي
 متلاحق مترابط ، وربما أوضح ذلك قوله :
 ومن نفلت الأمراض يوماً فإته سيوشك يوماً أن تُصاب مقائله
 وقد نفلت الوحش الجبال وربما قبضت الوحشي يوماً حباله

(١) المصدر السابق ٣٤٥ وتأويبي : هادي ، ونجيش : تقي .
 (٢) المصدر السابق ٣٤٥ والمهيبض : الانكسار .

إذا العلم لم تعمل به صار حجة عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله
 فإن كنت قد أبصرت هذا فأنا يصدق قول المرء ما هو فاعله
 ولا يستقيم الدهر منهم لوجهه به مهبل حتى يقوم مائله
 وفيك إلى الدنيا اعتراض وإنا يكال لهي الميزان ما أنت كاتله
 فلا تتكث بعد الهدى عن بصيرة

كما تكث الجبل المضاعف قاتله
 وتطلب في الدنيا المنازل والملا وتسي نيماً دائماً لا تراه
 كمن غره لنع السراب ببيعة

فقصر عن ورد نجيش مناهله
 وقد خانت الدنيا فروناً تابعوا كما خان أعلى البيت يوماً أسافله
 وتصبح فيها آناً ثم لم تكن لتأمن في واد به الخوف نازله
 وقد ختلنا باللطيف من الهوى كما يخشل الوحشي بالشيء خاتله
 رضينا بما فيها سفاهاً ولم يكن يبيع سمين اللحم بالفت آكله
 وعاقبة اللذات تخشى وإنا يكدر يوماً عاجل الأمر آجله
 وإن فرحت بالمرء يوماً حلائل فلا بد يوماً أن ترن حلائله
 فكم من فتى قد كان في شيرة الصبا

فأقصر بعد المذل عنه عواذله
 إذا ما سنا حق إليك وباطل عليك فلا يذهب بحقتك باطله

وقد يأمل الراجي فيكذب ظنّه أمورٌ ويلقى الشيء ما كان يأمله^(١)

ومعاني النص "متوائمة" "متناسبة" ، فن "أفئدة" بد النبتة يوماً أوشكت أن تنقي عليه وتغنيه ، والملم "مدعاة العمل الصالح ، فإذا انحرف صاحبه يرى منه ولم يشفع لوزره ، ولكن لا يظن أحد ان في الجبل مفرأً ينجيه فلا يؤاخذ ، فليس في جهل معذرة . ذلك القول الحق ، ومن وقّر في نفسه فلا بد أن تصدقته أعماله ، ومن استكبر بجملة اصطحة أيد الأبدن . ومن الناس من "يخالد إلى الحياة الدنيا لكنه سوف يلقى - لا محالة - ما قدمه بين يديه ، وليس مثله إلا كمثل الذي يتنفض حبله من بعد قوة أنكأ ، أو كالذي خدعه الشراب فجرى وراءه معكوساً عن الماء الثمير . وكيف ير "كن" إلى الدنيا وهو يعلم كيف خانت القرون الخالية ؟ وأنى له الأمن في واد تخوف ؟ أبعدو وراءه هواء يسقط في شبكات المنصوبة ؟ أينفري دنياه بآخرته ؟ أيكدر بماجل إثم مستقبله ؟ ويجترح السببات ... فهل له من الموت ملة يأمل فيه ؟ إلا ما أكثر اقترام الطنون !

وما بلغت النظر في شعر سابق تفاوت مستواه الفني ، ولا أعني التفاوت المألوف في تاج كل شاعر ، وإنما أعني أن يجزم المضارع بعد في الاستفهامية :

متى تكونوا على منهاج أولكم

وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا؟^(٢)

أو أن ينحدر أسلوبه فيقول :

لكم بيوت بمسكن السيول وهل

يبقى على الماء بيت أسه مدر ؟

أصبحتم جزراً للموت يأخذكم كما البهائم في الدنيا لكم جزر^(٣)

(١) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٤٧ وما بعدها ، والقبعة : الأرض المنبسطة ، واخل : خدع وغر ، وترن : تبكي ، وشرة السبا : حذته ومبته .
(٢) المصدر السابق ٣٤٤ ، هذا ويجوز أن تعدق شرطية لاستفهامية فيكون جوابها محذوفاً تقديره تخلوا .
(٣) المصدر السابق ٣٤٣ وستن : ميل .

والصورة الفنية في البيت الأول بديهة متقنة ، ولكنه لو استبدل بحرف الاستفهام « هل » ، وما « النافية » فقال :

لكم بيوت بمسكن السيول وما يبقى على الماء بيت أسه مدر

إذن خلقت عن النظم الأول الثقل الذي أصابه من استخفاء الميم بين يدي الباء في « لكم بيوت » ، وانقلاب التنوين ميماً قبل « بمسكن » ، وتصنيف التنوين في هذه الكلمة الأخيرة ، وتوالي حركات اللام الثانية من « السيول » والواو والماء في « وهل » ، بعد المراتل الثلاث السابقات ، وانقطاع النشم الصحيح المنبث من الطرف اللطيف « الماء » بسكون اللام ، دون أن يتيسر لها متفرج طليق ، ولو جعل صورة الموت الذي يأتي على البشر ، في البيت الثاني ، مثل صورة النشاء يجردونها ويقديرون عليها ، لسكنت خيراً من صورة البهائم وأقره في النفس وادعى إلى التأثير فيها . وهذه المفردات الثنوية والفنية - إذا لم يكن لتحرير الناصحين فيها نصيب - تؤيد مغريسة سابق ، وقد يمكن أن يستنبط منها أنه لم يقل الشعر قبل وفادته الشام وإيقانه العربية .

على أن سابقاً ينهض بمستواه الفني في مواضع أخرى نهضات عالية فذا آياته نسمة القلب وثبت على التفكير والاستبصار ، فيقول :

نلهو ونأمل أياماً تمد لنا سريمة المر تطوينا ونطويها

كم من عزيز سياتي بعد عزته ذلاً وضاحكة يوماً ستبكيها^(١)

ويقول :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ووافيت بعد الموت من قد ترودا

(١) المصدر السابق ٣٥٠ .

ندمت على ألا تكون شركته

وأرصدت قبل الموت ما كان أرصداً^(١)

فهو يلفت في البيتين الأولين إلى انقضاء الأجل في حينه القدر ، فإذا
عزيز بذلك ، وإذا لام ينوق وبال أمره ، ويعرض في البيتين الآخرين صورة النبي
المغبوط يوم القيامة وسورة المشرق النادم ، وروى أن عمر بن عبد العزيز بكى لما
أشيد هذين البيتين ، ودمت عيناه بغزارة^(٢) .



(١) حلية الأولياء ٣١٨/٥ وتهذيب ابن عساكر ٣٩/٦ .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٤٠/٦ .

فصل الثاني

في العصر العباسي الأول

١ - الشعراء الفقهاء في العصر العباسي الأول :

لم نرت من هذه الفترة من الشعر بمقدار ما ورثناه عن الفترة قبلها ، كما لم
تحتفظ المصادر بأسماء شعراء يمدلون سابقهم عدداً ، وأول من زام في مطلع العصر
العباسي عبادة بن شيبة الصنعيني^(١) التوفي سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة^(٢)
عن ستة وعشرين حنولاً^(٣) ، وكان من أئمة أهل الكوفة^(٤) ، وقد جعله المنصور
على قضاء سوادها^(٥) فصرف بالغة وحسن الخلق والحصافة والجود^(٦) وبراعة
الخطابة ورواية الشعر وإتقان علم الأنساب^(٧) .

وقد تقدمت لابن شيبة بصنعة أبيات متفرقة ، وما بقي له أيضاً حينئذ
تهدي إلى الأمانة في المعاملة فلا يخذل المرء قريبه أو حميمه إذا ما زل مرة من
المرات ، فقد يصحو ويهجر زلته إلى غير رجعة ، أو إلى رجعة في مجملها :

لا يُخزل المولى لأوّل عشرة عسى في اقتبال السن أن يتحكماً

فيذهب عنه الجهل أو يستميده لعريض قوم مثله أن يمجتاً^(٨)

وفي مواضع أخرى يتساءل عن عاقبة غيبه ثوائه في لحنه وعن أخلاقه
يومئذ : هل يذكرونه بمد رحيله أو ينسونه^(٩) ؟ ويتحدث عن نولي الدنيا^(١٠) ،

(١) المعارف ٤٧ . (٢) طبقات ابن سعد ٦/٣٥ ، وقيل توفي سنة ١٤٥ . انظر اخبار
القضاة ٣/١٠٧ . (٣) اخبار القضاة ٣/١٣٤ . (٤) المصدر السابق ٣/١٢٠ .
(٥) تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٧١ . وكان يوسف بن عمر قد استعمله في القضاء الأموي ثم عزله
انظر اخبار القضاة ٣/٩٥ . (٦) انظر في هذه الصفات تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٧١ .
(٧) انظر في هذه الصفات البيان والتبيين ١/٣٣٦ . (٨) اخبار القضاة ٣/١٩٥ . ويضم
بجمل النبي حتا . (٩) اخبار القضاة ٣/٩٥ . (١٠) المصدر السابق ٣/٩٠ .

ورجاله النجاة بأدبهم ليس لأحد عليه من شيء ولا له على أحد من شيء:

يُمَثِّونِي الْأَجْرَ الْعَظِيمَ وَلِيَتَنِي نَجْوَتُ كَهَافًا لِأَعْلَى وَلَا لِيَا^(١)

ويدعو إلى مواساة الأتارب وحسن الجوار فيقول:

كُنْ لِلْأَقْرَابِ مَا حَيَّيْتَ مُوَسِيًّا وَلِذِي الْجَوَارِ تَحِيَّةً وَسَلَامًا^(٢)

ولمبداه بن شبرمة إلى جانب الحكمة أبيات شتى يمدح فيها كثر بن وبرة وعبد الله بن طارق، وكانا من كبار الزاهدين^(٣)، ويرثي الققاع بن مبيد أمير شرطة الكوفة^(٤)، ويشكر لنوح بن دراج تنبيهه له في مسألة لم يصب فيها^(٥)، وبلغت عيسى بن موسى حين عزله مالك بن الضحاك عن الولاية لشكوى أهل عمله ورفضهم فيه كتاباً أنهم لم يثبتوا على مالك ما يدينه، وأن الشكوى قد تكون وشاية بعض الحاسدين:

بِنَا مَلَلٌ عَنْ قَوْلِ وَاشٍ وَحَامِدٍ بَلَا تَبَتَّ عِنْدَ الْأَمِيرِ بِهَالِكٍ
فَجَدُّ يَا وَلِيَّ الْعَهْدِ مِنْكَ بِنِعْمَةٍ وَمَنْ وَإِفْضَالٍ عَلَيْنَا بِمَالِكٍ^(٦)

ومن ثبت لهم أبيات قليلة من هذا العهد الإمام أبو حنيفة الزهبي بن ثابت التوفي ببغداد سنة مائة وخمسين، وكان أبو حنيفة خزانة^(٧)، غير أنه مع حرقته - كان يهتم بعلوم الدين حتى بلغ في فقه الرأي ما بلغ، وقد شهدت الترام أنه كان عالماً طاملاً زاهداً طابداً ورعاً تقياً كثير المنسوخ دائم التفرغ إلى الله تعالى^(٨). حسن المجلس شديد الكرم ديمت الصحة بارع المنطق^(٩)، وعما في قوله ينصح بالانزاع في الخلمات:

أَقُولُ وَفِي قَوْلِي بِلَاغٍ وَحِكْمَةٍ وَمَا قَلْتُ قَوْلًا جِثَّتْ فِيهِ بِمُشْكِرٍ

- (١) المصدر السابق ٩٠/٣ . (٢) المصدر السابق ١٠٤/٣ .
(٣) حلية الأولياء ٨١/٥ (٤) أخبار القضاة ٩٦/٣ (٥) المصدر السابق ٩١/٣ .
(٦) المصدر السابق ١٠٧/٣ وانظر أبياتاً أخرى له في أخبار القضاة ٩٠/٣ و ٩٥ و ٩٦ و ١٠١ و ١٠٧ و ١٠٨ (٧) الحارث ٤٩٥ والخزاز: باع الثياب (٨) وفيات الأعيان ٤٠/٥ .
(٩) المصدر السابق ٤١/٥ و ٤٢ .

أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ خَافُوا إِلَهُكُمْ فَلَا تَدْخُلُوا الْحَمَامَ إِلَّا بِمَنْزَرٍ^(١)

وكان بناصر أبو حنيفة مبشراً بن كدام الفقيه الزاهد التوفي سنة خمس وخمسين ومائة في الكوفة^(٢)، وكان يقول:

وَجَدْتُ الْجُوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيْفٌ وَمِثْلُهُ الْكُفَّ مِنْ مَاءِ الْفِرَاتِ
وَقُلُّ الطُّثْمِ عَوْنٌ لِلْمَصَلِيِّ

وَكَثُرُ الطُّثْمِ عَوْنٌ لِلْسَّبَاتِ^(٣)

وعلى هذه الشاكلة من التفثف والزهادة يدعو إلى اليأس عما في أيدي الناس وينكر مساوئهم^(٤). وعن عاصم مبشراً في الكوفة سفيان بن سميد بن مسروق الثوري التوفي بالبصرة متوارياً من السلطان، سنة إحدى وستين ومائة، وهو ابن اربع وستين سنة^(٥).

وذكر له ابن جبره قوله في كثيره:

لَأَنِّي وَإِنْ كَانَ مَسْنِيَّ كَكَبِيرٍ عَلَى مَا قَدْ تَرَيْنَنِّي مِنْ كَبِيرِي

أَعْرَفُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُفَارِقَنِي مَوْجِعَ سَهْمِي وَالسَّهْمُ فِي الْوَتْرِ^(٦)

وكان سفيان من فقهاء الرأي^(٧)، وعن كان على هذا النهج في أبحاثه أيضاً حيتان بن علي التنزي التوفي بالكوفة سنة إحدى وسبعين ومائة^(٨)، وهو الذي روى عن أبي حنيفة قوله: «حين ضربت لأبي القضاء ما أصابني في ضرب أشد علي من غم والفتي»^(٩) وقد ذكرت له أربعة أبيات في رثاء أخيه ميتدل. وعن

- (١) الطبقات النبوية للزبي ١٠٨/١ وفيه يقول أيضاً: «وأما ما ينسب إلى أبي حنيفة من الشعر فكثير». (٢) تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول ٨٩/٢ وقيل توفي سنة ١٥٢ هـ. (الحارث ١٨١) وقيل سنة ١٥٣ هـ مختصر جامع بيان العلم من ١٥٩ هـ. (٣) حلية الأولياء ٢١٩/٧. (٤) انظر صفة الصفوة ٧٣/٣. (٥) الحارث ٤٩٧. (٦) القدر الفريد ٥٩/٣. (٧) الحارث ٤٩٧. (٨) طبقات ابن سعد ٣٨١/٦. وقيل توفي سنة ١٧٢ هـ الجواهر المضية ١٨٤/١. (٩) الجواهر المضية ١٨٤/١.

كان ينصر الرأي، في بعض قترات عمره، عبد الله بن المبارك المروزي، وسوف يأتي ذكره.

وطاش في هذه الفترة طاهر بن صالح بن عبد الله بن مروان بن الزبير المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة (١)، وكان قصباً محدثاً نسباً إخبارياً (٢) سكن بندا (٣) إلا أنه ظن مضمطرم الهوى نحو ديار أجداده من بني الزبير في الحجاز، يقول في بعض شعره:

ليت شعري ولليالي صروف هل أرى صرّةً ببيع الزبير
ذاك معنى أحبه وقطين تشبه النفس أن ينالوا بخير (٤)

وهو يريد تلطفه عليهم في بيتين آخرين ويرجو أن تدنيه منهم فوق ضمير كأنها القسي من أثر السفر (٥). ويفتخر في موضع ثالث بالزبير بن العوام ابن عمه النبي ﷺ وكان شهد معه بدرًا وعليه عمامة صفراء، فيذكر ذلك قوله:

جدتي ابن عمّة أحمد ووزيره عند البلاء وفارس الشقراء
وغداة بدر كان أول فارس شهد الوغى في اللامة الصفراء (٦)

وعن حمزي إليهم بعض الأبيات من ذلك الحين سفيان بن عيينة المتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة (٧)، وكان من شيوخ الإمام الشافعي في مكة، وقد روى له قوله:

كم من قوي قوي في قلبه

مهذب الرأي عنه الرزق منحرف

ومن ضميم ضميم الرأي مختلط كأنه من خليج البحر يعترف

(١) و (٢) تهذيب التهذيب ٧٢/٥ وانظر طبقات ابن سعد ٤٣٥/٥. (٣) تاريخ بندا ٢٣٥/١٢. (٤) جمهرة أنساب العرب ١٢٤ والمغني: المنزل. والفاطن: القيم. (٥) انظر تاريخ بندا ٢٣٥/١٢. المصدر السابق ٢٣٥/١٢ وسير أعلام النبلاء ٣٠/١ وانظر رواية الأخير لقوله أبي جعفر محمد الباقر: «كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء والامة: البرج». (٦) العقد الفريد ٢٩٠/٢. (٧) لسان الميزان ١٨٠/٦. (٨) معجم الشعراء ٤٨٤. (٩) لسان الميزان ١٨٠/٦. (١٠) ترتيب المسدرك ١١١/١٠. (١١) الولاة والقضاء ١٤٣.

هذا دليل على أن الإله له سير خفي علينا ليس ينكشف (١) وروى ابن عبد ربه أنه: لما انفرد سفيان بن عيينة ومات نظراؤه من العلماء فكأثر الناس عليه فأنشأ يقول:

خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء نغرد بالسوود (٢)

وكان تلميذ سفيان الإمام الشافعي من أشهر الفقهاء، وسوف أتف عنه، وتلاه أبو يحيى هارون بن عبد الله الزهري، وكان قد نشأ في الحجاز (٣) ثم هبط له أن ينهل عن فقيه دار الهجرة مالك بن أنس (٤)، وبسلك منهجه في البحث الفقهي طوال عمره (٥)، وكما أخذ عن الإمام مالك أخذ أيضاً عن ابن وهب وابن أبي حازم والنيرة والواقدي (٦)، ثم روى عنه يحيى بن عمر ويوسف بن عبد الأعلى (٧) وعمر بن شبة (٨) وغيرهم.

وتجرباً المصادر أن أبا يحيى قد آمن في تبصر الفقه المالكي حتى صار واحداً من صنف في مختلف قول مالك (٩). ولاحظ المأمون نبأه فاستقضاه على المصنعة ثم على الرقة ثم على عسكر المهدي في بندا ثم على مصر (١٠)، ويروى أنه اتجه إلى وظيفة الأخيرة سنة سبع عشرة ومائتين (١١)، وأنه لم ينتظر طويلاً حتى تلقى من رئاسة الحكومة قراراً بأمره ألا يقبل شهادة من لا يقره بخلق القرآض. وتختلف الروايات في موقفه من هذا القرار إلى قسمين. الأول يجزئنا أن هارون استنق فكلّف ابن أبي دؤاد، قاضي القضاء، محمد بن أبي الليث ليقوم بالحننة، فصار يقول الزهري: «الحمد لله على معافاتي مما ابتلى به غيري». ورفع ذلك إلى ابن

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٩١/٢ والمناقب الرازي ١١٣ وانظر روضة الفلا ١٣. (٢) العقد الفريد ٢٩٠/٢. (٣) اختلت المصادر هل هو مدني (معجم الشعراء ٤٨٤ وتاريخ بندا ١٤/١٤) أو مكّي (الديباج المذهب ٣١٨ وترتيب المدارك ١٥٥/١ وشجرة النور الزكية ٥٧) لكن أخذه عن الإمام مالك المدني، لا عن معاصره سفيان بن عيينة المكّي الذي كان له منذهب معروف في زمنه. وكذلك حينه في بعض شعره إلى المدينة لا إلى مكة (انظر آياتنا له في أخبار القضاء ٢٧٤/٣) كل ذلك يرجع مدنيته. (٤) و (٥) و (٦) و (٧) شجرة النور الزكية ٥٧. (٨) معجم الشعراء ٤٨٤. (٩) لسان الميزان ١٨٠/٦. (١٠) ترتيب المسدرك ١١١/١٠. (١١) الولاة والقضاء ١٤٣.

ابي دؤاد غزله وولي ابن ابي الليث فاستن هارون وحبه (١). والقسم الثاني من الروايات يذهب إلى ان هارون امتثل القرار فكان إذا شهد عنده شاهدان (ألم) عن القرآن، فإن أقرأ أنه مخلوق فليها، وإلا أوقف شهادتهما، غير أنه كان يفعل ذلك تقيّةً بديل أنه صار يتساح فيه حتى 'صرف ثم امتحن' (٢).
 وأيضاً ما سحّ الرأي الذي كان يسيده أبو يحيى في أوّل الأمر فإنّ دؤاد ظنّه يستنكر الفتنة ويجاهدها إلى أن اجاب سُنادي الرحمن، وأكثر الروايات على أنه خاض في مصر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٣)، وقيل بل سنة ثمان وعشرين ومائتين (٤)، والقولان ساء يردان ما ذكر من انه توفي عام اثنين وثلاثين ومائة (٥) وأغلب الظن أن هذا من سنن الشحنة.

ويدور أكثر شمره حول الحكمة، فهو دائم الوعظ أن يحثي الانسان ربه، ويتقي مآده، ويجاهد نفسه وأهواءها، وينصر الجماعة، ويحذر حسادة ناهبها، إذ أن حفظهم حفظه ويرحم الشتاة وينهم الخيف ليوفوه من بسه ذلك أجره، ويكونوا له عدوً وذخراً، وينصح أبو يحيى بتكثير الاخوان ومداراة الاعداء والبادرة بالصلح إن أراده، ويستثني من ابتلي منهم بالحسد، فإن من طباؤه أن يتراعى بالودعة ويكين حيقده، وهذا ليس يرجي لعلته برادة، وليس ثمة وسيلة إلا الصبر اليقظ على ما يفتيق من فنون المعاملة:

واقه فآخس وخف ذوبك عنده يوم الحساب وكن لنفسك رادعا
 لا تعط نفسك ما تريد ولا تكن فيما يضرّك إن دعت مسارعا
 لا تنس عبداً للمطامع وتكن للفضل متبوعاً ولا تك تابعا
 كن للمشيئة في الأمور إذا عرت كحفاً عنها في الأمور مدافعا
 لا تحسبن نبيها واخشع له خير من أن تلقى لآخر خاصنا

(١) الولاية والقضاء ١٤٧ وترتيب المدارك ١٦١/١ ولسان الميزان ١٧٩/٦.
 (٢) انظر السند السابقة وصفحتها. (٣) لسان الميزان ١٨٠/٦ وصلاة الجنان ١٠٧/٢ وشجرة النور الزكية ٥٧. (٤) ترتيب المدارك ١١٨/١. (٥) الديباج للذهب ٢٤٨.

سهل له فيما يريد طريقه حتى يكون برفعة لك رافعا
 فتى ينل حظاً يكن لك حفظه وتكون فيه مفارقاً ومُجامعا
 وإذا نشأ لك ناشئ فانهض به وامنه من ضمير يكن لك مانعا
 حافظاً عليه واتخذة عدوً سيفاً إذا لقي الكربة قاطعا
 أكثر صديقك ما استطعت فإبه ضرراً إذا ما لم يكن لك ناقما
 داور العداوة من عدوك بالتقى واحذر عدوك دانياً أو شامعا
 وإذا دعاك إلى الرجوع وشاء فارجع له وليتلف سيربك واسعا
 إلا الحسود فإنّ تلك عداوة يبدي الرضا ويكون سما ناقما
 فاصبر عليه فليس فيه حيلة وليتطلعن طوالماً وطوالماً (٦)

وعلى نحو استرساله في هذه النماذج يعود في قصيدة اخرى فيذكر كيف تنقلب أحوال الانسان في الشدة والرخاء والنشاط والكثرة، فاعليه إلا الصبر على كل حال، فكم من أمر بالغ السوء قد يشره الله له من حيث لم يحظر في حسابه:

أيام معروفك، ما لم يُعن بالصبر، أحوال وأحوال
 فاصبر لها، واصبر لمكروها لأنّ للذي يُدبر إقبال
 وربّ أمرٍ مرتجع بإبه عليه أن يفتتح أفعال
 ضاق بذئ الحيلة في فتحه حيثُسه والمرء مُحتمل
 ثم تلقاه مقايحه من حيث لم يخطر به البال (٧)

ولهارون - مع الحكمة - غزل ونثر وهجاء، وقد مرّت بنا آياته أو

(١) ترتيب المدارك ١١٩/١ وأخبار الفضاة ٢٧٤/٣.
 (٢) ترتيب المدارك ١١٨/١ وأخبار الفضاة ٢٧٥/٣، ورتبج: منلق.

بمن فيها إلى شخص حبيب إليه بأكناف الدينة ، وأيضاً فقد رويت له قصيدة في
سبعة عشر بيتاً تقرب ، في هيكها من مخرج القصيدة القديمة ، وهي بتبدي بظن
الحي بليل دون أن يدروا له مجالاً لوصال ولا نوال ، وبذكر فرح المذال
برحيلها وفرط اكتسابه عليها وأنه كان يمنع زيارتها وهي لما نزل مقيمة في الحي ،
فكيف وقد نأت بها بحيلتها ؟ لقد بانت حياته من بعدها شقية مرة :

ماذا على الحي يوم البين لو رتموا أو وصلوا من حبال البين ما قطعوا
بل لم ينالوا أسيراً في الديار ولو نالوه لم يصنعوا في ذلك ما صنعوا
أما رأيت حول الحي باكرة بحيتها جاذل بالبين مندفع
ناديت ليلى ولا ليلى يودعني منها السلام فكلد القلب ينصدع
يا ليل أهلك أحموني زيارتك والدار واحدة والشمل مجتمع
فالآن صر علي العيش بعدكم فلتت بالعيش بعد اليوم أنفع

ثم يتقل إلى الفخر بجوده وغنائه وجلادته وصبره وعفته ، ثم يهجو
شخصاً شتمه فيكني باستخفافه بشأنه إلى حد إهماله وتجاهله ، ذلك أنه لا يرق إلى
درجات المؤاخدة ، وأن من عادة أبي يحيى ألا يجعل غضبه في غير موضعه :

قالت سليمة علاك الشيب من كبير
والشيب أهون ما لم يأنك الصلح

ياسلم إني وإن شيب يفزعني رخب اليدين بما حلت مضطع
لا يطرأ الشر لي إني لمفرجه ولا أرى لصروف الدهر اختع
قد جربتني صروف الدهر فاعترفت

صلب القنائة صبوراً كيفما يقع

ثزه الخلاق لا يقناني طمع إن اللثم الذي يقتاده الطمع
هذا وجائر قوم ظلل يشتمني كالكلب ينبس حيناً ثم ينشتم
تركته معرضاً لي واستهنت به إذ لم يكن فيه لي ري ولا شبع
لا واضناً غضبي في غير موضعه ولا انتصاري إذا ما نالني الفزع^(١)

وأصل من الواضح في أسلوب هارون بن عبيدة الجزالة والتدفق ، وأغلب
الظن أن هذا ما لحظه عبدالمك بن عبدالمز بن أنشد أبو يحيى ثلاثة أبيات
له ، لكنه عزها إلى رجل من قشير ، وهي قوله :

ولما رأيت البين منها فجاءة وأهون للمكره أن يتوقما
ولم يبتق إلا أن يودع ظاعن مقيماً [وتدري غيره] أو مودعا
نظرت إليها نظرة فرأيتها وقد أبرزت من جانب الخدر أصما

فقال عبدالمك . والله لقد أحسن . فأخبره هارون أنها له وأنه قالها في طريقه
إليه ، فقال : قد والله عرفت فيها الضف حين أنشدني ، (٢) :

ومن شعراء تلك الحقبة أحمد بن أبي دؤاد^(٣) الأيادي ، قاضي القضاة للمنتصم
والواثق^(٤) ، وهو الذي حمل الخلفاء على امتحان العلماء^(٥) في مسألة اللفظ أو
خلقت القرآن أي أن آيات الذكر الحكيم قد أحدثت حين نزولها من اللأ الأعلى
على حسب الوقائع والمناسبات ، فهي إذن مخلوقة وليس ثمّة قديم إلا الله جل جلاله ،
وهو ما خالفه جمهور الفقهاء والمحدثين وأهل السنة ، إذ قالوا إن كلام الله قديم
أزلي ، إلا أنه نزل أولاً في عهد النبوة بحسب الأسباب الداعية إلى بيان ، ورأوا

(١) انظر القصيدة في أخبار القضاة ٢٧٦/٣ وترتيب المدارك ٥٢٠/١ .

(٢) انظر الأبيات وغيرها في أخبار القضاة ٢٧٧/٣ . وكذا ورد الشطر الأخير من البيت الذي

ولله ويذري عبرة . (٣) المرجح أن اسم أبيه هو كنيته «أبو دؤاد» وقيل بل «أبو

فروح (وفيات ٦٣/١) وقيل بل اسمه الفرج أو دمي (تاريخ بغداد ١٤٢/١) .

(٤) و (٥) الطبقات النبوية ٣٣٤/١ .

إن الخوض في هذه المسألة - من أساليب - ضرب من الفضول والتثنية ، إذ لم
يحملها الله تعالى أصلاً في الدين ولا فرعا (١) . وقد توفي ابن أبي دؤاد سنة أربعين
وماثنتين (٢) ، بعد أن نجح عن بطانة الخليفة المتوكل (٣) ، وأصيب بالفالج (٤) .
وقد مرت بنا لأحد عدة مقطوعات في رثاء ابن شهاب وهجاء ابن الزيات
وسدح الضمير ، وهو يؤزر ، في مقدمة مدحه المذكور ، مدينة « سُر » من رأي
على العاصمة الباسية ، ويصف سرايبها وديارها (٥) ، وله في البرم بيناد مقطوعة
أخرى تحدث عن جهاتها وصفاء الميش فيها وتنشيم الغرياء ، بآلة قطعانها ، بالأمن
فيها وقرارة السنين ، ولكنه يجبرنا بكرامته لها ، مع كل ذلك ، وهو أن أمرها عليه :

أما بنت في طول من الأرض أو عرض

كبناد داراً إننا جنة الأرض

صفا الميش في بناد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غص
تام بها عين الغريب ولا أبت ضرباً بأرض السلم يطع في المنض
لقد منيت بالبنض مني وبالقبلي
وما أصبحت أهلاً لهجر ولا بنض (٦)

وممن نسب لهم قول الشعر من هذه الفترة أحمد بن المذهل البصري ، شقيق
عبدالصمد الشاعر ، وكان قهياً مالِكياً متكلماً صاحب تصنيف (٧) ، وذكره ابن
الديم في الشعراء المتكلمين (٨) ، وتوفي سنة أربعين وماثنتين (٩) ، وما نسب له قوله :
ضحيت له كي أستظل بظله إذا الظل أضحي في القيامة قالصا
فوا أسفا إن كان سعيك باطلاً ويا حسرتا إن كان حظك ناقصا

(١) انظر في تاريخ هذه القضية وأثرها في العلماء بحث « مسألة خلق القرآن » للشيخ عبدالفتاح
أبوغدة (طبع بيروت) . (٢) تاريخ بناد ١٥٦/٤ - ٣ (٣) وفيات الأعيان ١/٢٣١ .
(٤) انظر الأبيات في أخبار القضاة ٢/٢٩٩ . (٥) المصدر السابق ٣/٣٠٠ وأبت : كرم .
(٦) شذرات الذهب ٢/٩٦ . (٧) الفهرست ٢٣٤ - ٩ (٨) شذرات الذهب ٢/٩٥ .

وعادت نفوس الناس عند حلوقهم يريقون زيفاً غايراً الماء شاخصا
وما كنت أرجو أن ينالك حرها وقد كنت في حر الظهيرة حائصا (١)
ومنهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة إحدى وأربعين وماثنتين ، وقد كان
يهي من شأن السنة إلى أقصى حد ، وجمع أغلب رثائها في كتابه « السند » ، ومسروف
كيف امتحنه أحمد بن أبي دؤاد وأداهه « مر » المذاب وألقاه في غياهب السجن وأنهى
بقتله (٢) ، لكنه صبر على ما أودى به واستمر يجاهد الفتنه ويقف - مع جماعة
الشفة - سداً قوياً حتى قتل بأسها بل تحطمت في عهد المتوكل وصارت ممررة
على صاحبها عند أهل الجرح والتعديل من المحدثين (٣) ، وقد احتفظت المصادر
بأبيات لابن حنبل يلوم فيها ابن اللبني المتوفى سنة ٢٣٤ ويستنكر تورطه في الفتنه
وإخلاقه إلى أهلها بعد أن كان يقدمهم أشده قذف ، ويبلغه إلى أن مصيبتيه في
دينه لا في فاقه ولا فصيل .

يا ابن المديني الذي شرعت له دنيا فجاد بدينه لينالها
ماذا دعاك إلى اعتقاد مقالة قد كان عندك كافراً من قالها
أمر بدا لك رشده فقبلته أم زهرة الدنيا أردت نوالها ؟
فلفقت عهدتك - لا أباً لك - مرة صعب المقادة التي تدعى لها
إن الحريب لمن يصاب بدينه لا من يرزأ ناقة وفصالها (٤)
وممن بقي لهم نصيب من القريض يحيى بن أكرم المتوفى سنة اثنتين وأربعين
وماثنتين (٥) ، وكان مع انتهاجه السنة (٦) من القرئين عند الأمامون (٧) ، وقد ولي

(١) ترتيب الدارك ٣/٥٥٣ ، ومخاضة الأبرار ٢/٤٥ وحياة الحيوان ١/٢٢٤ .
(٢) شذرات الذهب ٢/٩٣ . (٣) انظر أثر هذه الحقبة في صفوف الرواة والمحدثين وكتب
المرح والتعديل : مسألة خلق القرآن ١٠ وما بعدها . (٤) شعر الدعوة الإسلامية في العصر
البياسي الثاني ٣٥ والحريب : السروق . (٥) التاج المكلل ١٤٦ وقيل بل توفي سنة ٢٤٠
في يوم الثلاثاء حوادث ٢٤٠ . (٦) و (٧) وفيات الأعيان ٥/١٩٧ .

قضاء البصرة وهو ابن إحدى وعشرين سنة (١)، ثم صار قاضي القضاة (٢).
 وأم ما ورثناه من شعر يحيى أبيات لامية يعاتب فيها صديقاً له جماء بقة،
 فاستغرب ذلك منه، إذ هو - من جانبه - شديد الحرص على أخوانه. وإنما يباوي
 الآخر مودته بل يوشك أن يترك كل جاملها دون سابقه "موجبة" لقطيعة، ولولا
 ما حيل عليه من مصابة وتمثل لأذى صديقه ومبتدئة به ووفاء له إذن لهاجره
 وقاطمه، غير أنه يؤثر السبيل الأول؛ ذلك بأن "خسارة الإخوان من أفدح
 المصائب عند العاقلين :

جفوت وما فيما مضى كنت تفعلُ وأغفلت من لم تُنقِ عنك ينفلُ
 وعجلت قطع الوصل في ذات بيننا بلا حدثٍ أو كدت في ذلك تعجلُ
 وأصبحتُ لولا أنني ذو تعطفٍ عليك بوذي صابرٌ متحملُ
 أرى جفوة أوقبوة من أخي ندى إلى الله فيما المشكى والمسؤلُ
 فأقسيمُ لولا أن حقتك واجبٌ عليّ، وأني بالوفاء موكلُ
 لكنك عزوف النفس عن كل مدبرٍ

وبعضُ عزوف النفس عن ذلك أجل
 ولعنتي أرمي الحقوق وأستحي وأحملُ من ذي الود ما ليس يحملُ
 فإن مصاب المرء في أهل وده بلاء عظيم عند من كان يعقب (٣)
 ويحيى أبيات همزية في الحكمة تنازعها ثلاثة مواضع في المصادر، وهي
 أبيات يرجح أنها منبثيرة عن قصيدة واحدة، إذ أن بحرهما واحد، وهو الطويل
 وموضوعها واحد أو مشترك في المحاضرة على الجود ومذمة الضئالة وتبيان أثر
 المال في معاير الناس حين وزهم المرء. وقد ذكر البريد إحدى منق هذه.

(١) تهذيب التهذيب ١٨٣/١١ (٢) عيون التواريخ حوادث ٢٤٠.
 (٣) أخبار القضاة ١٦٤/٢.

القصيدة دون نسبة، لكن محقق كتابه استطاع أن يهتدي إليها وبكتيف عن
 صاحبها، يقول فيها :

تفظتُ بأثواب السخاء فأوني أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه
 وقارب إذا قاربتُ حراً فأوعا زين ويزري بالفتى قرناؤه
 وأقليل إذا ما قلت قولاً فأونه إذا قل قول المرء قل خطاؤه
 إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في ماء إذا قل ماءؤه
 إذا المرء لم يخر صديقاً لنفسه فناد به في الناس هذا جزاؤه (١)

أما الميزة الثانية فقد رواها له ابن جبان وقال : « أنشدني منصور بن محمد
 الكريزي ليحيى ابن اكرم :

إذا قل مال المرء قل بهاؤه وضائق عليه أرضه وسماؤه
 وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراهه
 ولم يعض في وجه من الأرض واسماً

من الناس إلا ضائق عنه فضاؤه
 وأصبح مردوداً عليه مقاله وكان به قد يقتدي خطباؤه
 وإن يبق لم يضرر عدواً بقاؤه وإن يفن لم يفقد خيراً فضاؤه (٢)
 وكذلك روى له ابن جبان البيتين الآخرين :

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
 تفظتُ بأثواب السخاء فأوني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه (٣)

(١) الفاضل ٤٤٣ وانظر مائمه . (٢) روضة الفلاء ٢٠١ .
 (٣) المصدر السابق ٢١٤ .

ولعل من الملاحظ تكرار البيت الثاني الأخير في مطلع المقموعة الأولى ،
ومن الشعراء الممترين في هذه الفترة أبو الحسن علي بن مجسر السعدي التوفقي
سنة أربع وأربعين ومائتين بعد أن طوى نسيم طاماً (١) ، وكان في أول عهده ينزل
بنداد ثم انتقل منها إلى مرو (٢) مما أتاح لأئمة الهدى كالبخاري ومسلم والترمذي والنسائي
أن يرووا عنه (٣) ، ولم يكن السعدي صاحب حديث فحسب بل قد تبحر في الفقه
وألف فيه أحكام القرآن (٤) .

ولابن مجسر عدة مقطوعات في الصداقة والزهد ، وبما له في الموضوع الأول
هذه الأبيات التي كتبها إلى بعض أصحابه بعبارة :

أحنُّ إلى عتابك غيرَ أني أجلك عن عتاب في كتاب
ونحن إذا التقينا قبل موت شفيت غليل صدري من عتاب
ولان سبقت بنا أيدي المنايا فكم من عتاب تحت التراب (٥)
ويروى أنه التقى به بن خشرم صديقه : فقال علي بن حجر لملي بن خشرم :
وصفيت فأحبيبتك من غير خبرة

فلما اخترنا جرت ما كنت توصف

فقال له :

ووافيت مشتاقاً على بُعد شقة يسارني في كل ركب له ذكر
واستكبر الأخبار قبل لقاء فلما التقينا صمغ الخبير الخبير (٦)
وبما أثر له في الزهد ثلاثة أبيات تلفت إلى حيوان الناس أو أغلهم وتمض
على المرزلة وكف اللسان وتخفيض الصوت وتذكر الموت يقول فيها :

زمانك ذا زمان دخول بيت وحفظ للسان وخفض صوت

(١) (٢) تاريخ بنداد ١١ / ٤١٨ . (٣) تهذيب التهذيب ٧ / ٢٩٣ .
(٤) تذكرة الحفاظ ٢ / ٣٦ . (٥) روضة القلاء ١٥٨ . وتاريخ بنداد ١١ / ١١٧ .
(٦) تاريخ بنداد ١١ / ٤١٨ .

فقد صرحت عبود الناس إلا أقلهم فبادر قبل فوت
فما بقي على الأيام شيء وما خلقت امرؤ إلا لموت (١)
ومثمن قضى نحبه سنة وفاة السعدي (٢٤٤ هـ) (٢) الشاعر محمد بن أبي
الناحية إسماعيل بن القاسم ، وكان عتياً ناسكاً ورعاً محمود السيرة (٣) ولي القضاء
برعة (٤) وجمع إلى فقهه (٥) قول الشعر في الزهد والحسنة والرفائق على طريقة أبيه (٦) .
فهو ينصح بالاعتبار المبصر ، لما أكثر أن تأتي الميتة على كل ذات لم يكن
ذات طعم السقيم قبيلتها ، ويثقلت إلى سلطان الموت فيقول :

لربما عوفص ذو غيرة أصح ما كان ولم يستقم
يا واضع الميت في قبره خاطبك القبر فلم تقسم (٧)
ويصرح ولا يبكي عن حتم الميتة فيقول :

علل المريض من الميتة لا يالجها الطيب
لأن الذي ذهب أهله وبقي لها هو الغريب (٨)

ويخاطب اللامي المقبل على أهوائه فيذكره بن بشرته الميتة إبان لذته (٩) ،
وتحدث من فضيلة حفظ اللسان وإقلال الكلام ، إذ ليس لكل نطق جواب ،
بل جواب ما يكره الشكوت (١٠) ، ويهدى إلى جنود السماء ، ويرمي ولا
بالشع ويدعو عليها بالقتل :

قتلت ولا فأنها خلعت خلة الدم
فهي تستهلك الجليل وتأتي على الكرم (١١)

(١) روضة القلاء ٦٧ . وصرح هنا بمعنى فسد . (٢) الروابي بالوفيات ٢ / ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق وصفته وطبقات الشعراء ٣٦٣ (٤) و (٥) طبقات الشعراء ٣٦٣ .
(٦) الحمدون من الشعراء ١٢٦ . (٧) مجمع الشعراء ٣٧٨ . والروابي بالوفيات ٢ / ٢٠٩ .
وعون : فهر . (٨) و (٩) الحمدون من الشعراء ١٢٧ . (١٠) الاغانى و الثقافة ،
٩٠ / ١ . (١١) ديوان العاني ١ / ١٩٨ .

وعمّن عاصر ابن أبي المناهية سوار بن عبد الله بن سوار المنبري، وكان فقيهاً بصرياً (١) لكنه ولي قضاء الرسافة ببغداد وانتقل إليها (٢)، وكان الإمام أحمد بن حنبل إذا سئل عن سوار قال: وما بلّغني عنه إلا خير، (٣) وتوفي في بغداد، بعد أن كُفّر، سنة خمس وأربعين ومائتين (٤). وروى ابن عبد ربه أن سواراً دخل على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال: أسلح الله الأمير لنا حاجة والمُذَرُّ فيها مُقَدَّمٌ

خفيفٌ مُعَنَّاهَا مُضَاعَفَةٌ الأَجْرُ
فإِنْ تَقَضَّيَا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَإِنْ حَاقَ مَقْدُورٌ فِي أَوْسَعِ العُذْرِ
فَأَكْرَمَهُ وَقَضَى حَاجَتَهُ (٥). وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد وصفه للمتوكل، فمضى إليه سوار، ولكنه لم يحظ ببطائه، فلما سأله محمد ماذا صنع قال:
رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا بَدَأْنَا وَقَدْ عَظُمَتْ غَنِيمَةُ سَالِمِينَا
وَمَا تَدْرِيْنَ أَيُّ الأَمْرِ خَيْرٌ أَمَا تَهْوَيْنِ أُمَّ مَا تَكْرَهِينَا (٦)

وكان خاتمة القافلة من شعراء الفقهاء القاسم بن إبراهيم طباطبا الرسي، وهو شقيق محمد بن طباطبا الذي ظهر أيام المأمون، وكان الخليفة لما فرغ من أمره طلبت أخاه القاسم وكان يسكن جبال قندس من أمراء المدينة (٧) فقرأ إلى السند، فلم يزل هناك إلى أن فاضت روحه سنة خمسة وأربعين ومائتين، ورجع ابنه الحسن إلى اليمن، فكان من عقبه الأئمة الزيديتون فيها (٨).

ويعد القاسم بن إبراهيم الرسي من أئمة الفقهاء على مذهب زيد بن علي، بل استطاع أن ينفذ من خلال اجتهاده إلى آراء جديدة تبعته فيها طائفة عرفت

(١) و (٢) تاريخ بغداد ٩/ ٢١٠ و ٢١١. (٣) تاريخ بغداد ٩/ ٢١١. (٤) المصدر السابق ٩/ ٢١٢. (٥) العقد الفريد ١/ ٢٨٢. وقد ذكر الخطيب البغدادي أنه إنما وفد إلى محمد بن عبد الله بن طاهر... فمضى كل حوائجه! انظر تاريخ بغداد ٩/ ٢١٠. (٦) أخبار الفضاة ٣/ ٢٧٩. (٧) معجم الشعراء ٢١٧. (٨) تاريخ اليمن لصارفة البني ١٥٩.

بالقاسمية (٩)، وفقه الرشي - كما يقول الشيخ أبو زهرة - ممتاز جيد (١٠)، وآثار القاسم، كما تدل آثاره المخطوطة، غزيرة وافرة منها الدليل الكبير، والرد على ابن المفتح، والرد على النصارى، والمسترشد، والرد على المتأخرين ومناظراته، وسياسة النفس، والإمامة، وصفة المرث والكرمي، والقتل والقتال، وأصول العدل والتوحيد وكتاب الهجرة، والمكتون، والعدل والتوحيد وفي التشبيه عن الله الواحد الحميد، والدليل المنبر، ومديح القرآن الكبير، ومديح القرآن الصغير، والنسخ والنسوخ والبسمل والكرر والنشأ والمفرد (١١).

وإلى جانب تصانيفه الكثيرة في علوم الدين له آثار من القريض، لكنها آثار تدل على أنه كان، كما قال المرزباني، حسن الشعر جيد (١٢)، ومما ذكر له قوله:

دَعْبِي هُدَيْتِ أَنْالُ الفَيْي بِيَأْسِ الضَّمِيرِ وَهَجَرَ المُنَى
كفافُ امرئٍ قانع قوئهِ ومن يرض بالقوت نال الفَيْي (١٣)



(١) و (٢) الإمام زيد محمد أبو زهرة ٤٩٥. (٣) في دار الكتب المصرية صور مأخوذة لكل هذه الكتب. وانظر البنية المصرية لتصور المخطوطات الدكتور خليل طيحي ص ٢٤ (وزارة المعارف ١٩٥٢). (٤) و (٥) معجم الشعراء ٢١٧ و ٢١٨.

٢ - أعلام السمراء الفقهاء في هذا العصر:

أ - عبد الله بن المبارك :

ولد أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك سنة مائة وعشرون للهجرة (١) في مدينة مرو (٢) من الأقطار الشرقية التي يسيطر اليوم الاتحاد السوفيتي نفوذه عليها، وكان أبوه المبارك من أهل هذه المدينة الأتراك (٣)، وكانت أمه خوارزمية (٤)، وقد أرسله والده إلى الكتّاب منذ نعومة أظفاره لاستظهار القرآن وبعض منادى العلوم وكانت تدرّس بالمرية، اللغة الهجوية في قلوب تلك الديار، ويبدو أنه كان ذكياً مفرطاً في الذكاء، وروى عن سحر سدين ابن المبارك أنه قال: «سكنا غلماناً في الكتاب، فررت أبا وابن المبارك، ورجلٌ يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم فقال: هاتها - فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها» (٥).

ولما ترمح عبد الله بن المبارك استخف به بعض أتباعه فاشام على اللهو والموسيقا إلى حين قذف الله في قلبه نوراً وهشاجاً من لدنه فأترق بالتقوى وهرم بالصفاء، وقد حدث هو عن ذلك فقال: «كنت جالساً مع إخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل، وكنت مولماً بضرب المود والطنبور، وقت سحرأ فرأيت في منامي طائرأ

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧ - الورقة ١٤، والديباج للذهب ١٣٠.
 (٢) تذكرة الحفاظ ١/٢٥٠. والقصة المشهورة المنسوبة إلى إبراهيم بن آدم تنزى أيضاً للمبارك
 (٣) ابن خلكان: «وعكس عن أبيه أنه كان يعمل في بستان لولاه وأقام فيه زمناً ثم إن مولاه جاء يوماً وقال له: أريد رماناً حلواً. فضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً، فكسره فوجده حامضاً، فحرد عليه وقال: أطلب الحلو فتضرت لي الحامض؟ هات حلواً. فضى وفتح من شجرة أخرى، فلما كسره وجده أيضاً حامضاً، فاشتد حرده عليه، وفضل ذلك دفعة تالسة، فقال له بيد ذلك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: لا. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن ما أكلت منه شيئاً حتى أمرقه. فقال: ولم لم تأكل؟ قال: لأني ما أذنت لي. فكشف عن ذلك فوجده حامضاً، فظن في بينه وزوجه ابنته» وقال ابن عبد الله رزقه من تلك الابنة، فنت عليه بركة أبيه (وفيات الأعيان ٢/٢٤٧).
 (٤) تاريخ بغداد ١٠/١٠٣٦.
 (٥) تاريخ بغداد ١٠/١٦٥.

فوق رأسي على شجرة يقول: «لم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟» قلت: بلى. فأنهت وكسرت عودي وحرقت ما كان عندي، فكان هذا أول زهدي» (١).

وتنبأنا الروايات أن عبد الله قد شرع منذ هذه التوبة في حياة عظمة جادة صادقة خالصة لله، وكان آنفد ابن بضع وعشرين (٢)، ولم يكف بشيوخ دياره بل طوف في طلب العلم المراق والحجاز والشام ومصر واليمن (٣)، وأخذ عن كثرة عظيمة من علماء تلك الأمصار، وبلغ عدد الذين حدث عنهم في كتبه فقط مائة وألفاً (٤)، ونشير المصادر إلى أنه قد جمع حديث رسول الله ﷺ وحمله كله وحده «حافظاً» (٥) له، وقد قال فيه أحمد بن حنبل، بحسب، «لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه» (٦).

وكل التراجم التي عليه بهذا الحفظ النادر، وروى عن ابن علية أنه قال: «أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أربح العباد منك. قال: فأين أنت من ألف حديث وضمتها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلها ما فيها حرف نطق به. قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك بتخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً؟» (٧). وروى أيضاً عن إسماعيل بن علي أنه قال: «بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد (شيعه) مسلماً عليه، فقال أصحاب الحديث لحامد بن زيد: يا أبا إسماعيل، تسأل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا؟ فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدثهم، فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدث وأنت حاضر؟ قال: فقال: أقمت لتفعلن - أو نحوه - قال: فقال ابن المبارك: سخواً وحدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد... لما حدثت بحرف إلا عن حماد بن زيد» (٨) ولا تدل هذه القصة على مبلغ استيعاب عبد الله لحديث رسول الله ﷺ، وإنما أيضاً على أدبه الوافر وفوقه السليم

(١) انظر حاشي الجواهر المضية ١/٢٨٢. (٢) عيون التواريخ حوادث سنة ١٨٦.
 (٣) طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧. (٤) الكواكب الدرية ١/٣٧ وانظر مجموعة من شيوخه في تاريخ بغداد ١٠/١٥٣ والديباج للذهب ١٣٠. (٥) تذكرة الحفاظ ١/٢٥٠.
 (٦) البر في خبر من غير ١/٢٧١. (٧) تاريخ الحفاظ ٢٩٣. (٨) تاريخ بغداد ١٠/١٥٥.

وإستيماءه للحديث النبوي على هذه الشاكلة التي زاد نصيبه معها على عشرين ألف حديث (١) هو ما يُفسر لإبشاره منهاج مالك في دراسته الفقهية على منهاج أبي حنيفة، فإن المبارك صاحب ذخيرة فياضة من السنة، وهي ذخيرة 'مُحِيل' - كأنها توقرت - من الرأي، ومن هنا كان سهلاً عليه سهولة بالنسبة أن يروي موطأ فقيه المدينة (٢)، ومن هنا كان كثيراً ما يرد مثل قوله: «ليكن الذي تمتدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لسلم الحديث» (٣)، وكان يقول إذا سئل ألا يستوحش من كثرة جلوسه في بيته؟: «كيف استوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟» (٤).

ومن يقرأ كتاب الزهد والرقائق وكتاب الجهاد لابن المبارك يأتي من كتب غزارة مادته، وقد قام بتحقيق الكتاب الأول - في سفر ضخيم يتألف من ٨٠٣ من الصفحات - حبيب الله الأعظمي وكيل مجلس إحياء المآثر (بجاليكاون، فلسك) في الهند، فاعتمد على مخطوطه نسخاً ثلاثاً من إستانبول والإسكندرية ودمشق، وتنتهي هذه النسخ إلى المصنف من طريقتين أو من روايتين، رواية الحسين بن الحسن المرؤزي المتوفى سنة (٢٤٦ هـ)، ورواية نعيم بن حماد المتوفى سنة (٢٢٨)، وكل منهما روى عن ابن المبارك.

وعلى نهج كثير من المصنفات في حديث رسول الله ﷺ في القرن الثاني كان كتاب الزهد والرقائق لا يحتوي أحاديث مرفوعة فحسب، بل أيضاً مجموعة كبيرة من آثار الصحابة الموقوفة ومن مقاطيع التابعين وأتباعهم (٥). والكتاب دعوة واسعة إلى طاعة الله سبحانه وعبادته ودوام ذكره سرراً وجهراً والخوف منه والتوكل عليه، ونبذ الآثام والرياء والمُجْتَبِ، والإيمان في التفكير وإخلاص النية وتذكّر الموت وحفظ اللسان والاستقامة والتواضع واعتياد

(١) شذرات الذهب ٢٩٥/١، هذا ما في كتيبه، ويبدو أنه ليس بمجموع ما كان يحفظ.
 (٢) التاج للسكك ٥٧. (٣) حلية الأولياء ١٦٥/٨.
 (٤) تاريخ بغداد ١٥٤/١٠. (٥) الحديث المرفوع هو ما رواه الصحابي أو التابعي أو من بعدهما من أقوال رسول الله وأصحابه وتقريراته وصفاته. والموقوف ما عزي إلى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير، والمقطوع ما نسب من ذلك إلى التابعي فن يند.

الجوامع والمفة عن حطام الدنيا الفزور، وتحريمي الخلال والاعتصام بالقناعة والرضى والإحسان والجود والصبر وإصلاح ذات البين ويعرض المؤلف أيضاً مقتطفات من سير الانبياء وخصال الصالحين.

وقد جعل المصنف أبواباً أبواباً، وأكثر الأجزاء السالفة عناوين لها، ولعل من الخير أن نقف عند باب منها، وهو باب الإخلاص والنية (١)، ليكون مثالاً على طريقتيه. وابن المبارك يروي فيه أربعة أحاديث للنبي ﷺ، منها الحديث المشهور: «إنما الأعمال بالنيات...» (٢)، ومنها الحديث القدسي: «أحب ما تبذلني به عبيدي إليّ الصبح» (٣). وقد وزع الأحاديث من دون تتابع. وإلى جانب ذلك أورد عدة آثار موقوفة للسيدة عائشة منها قولها الذي أفنذته إلى معاوية: «أما بعد فأتق الله، فإنك إذا اتقيت الله كفك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يضوا عنك من الله شيئاً» (٤)، وروي آثراً أخرى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابنه عبدالله.

وخلال الأحاديث والموقوفات كانت تتأثر مقاطيع التابعين ومن بعدهم، فيروي لجرير بن حيان وعمر بن عبدالعزیز ومحمد بن واسع، وما يذكره الأخير إنما هو قول يحفظه من مواعظ لقمان لابنه، وهو: «يا بني، اتق الله، ولا تثر الناس أنك تخشاه ليكرموك وقلبك فاجر» (٥). وروي أيضاً لبداثة بن عمرو بن الزبير وعطاء النبي وزيد الذي يقول: «يسرني أن يكون لي في كل نية نية حتى في الأكل والنوم» (٦)، ويورد للحسن البصري عدة آثار منها قوله: «ابن آدم تبصر القدي في عين أخيك وتدع الجذال المعترض في عينك» (٧). وروي كذلك لشقيق بن سلمة وابن أبي جعفر وأبي العلاء وسعيد بن جبير الذي يقول: «إن أول من يُدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله على كل حال، أو قال في السر والعلانية» (٨)، وعلى هذا النحو يروي لأبي البخاري وبديل.

وإلى جانب الأحاديث والموقوفات والمقاطيع يشتمل الكتاب على طائفة من

(١) انظر الزهد والرقائق ٦٢ وما بعدها. (٢) ٦٢ ص ٦٢. (٣) ٦٨ ص ٦٨. (٤) ٥٠ ص ٦٣. (٥) ٦٤ ص ٦٤. (٦) ٦٩ ص ٦٩. (٧) ٦٩ ص ٦٩. (٨) ٦٨ ص ٦٨.

سير الأنبياء، كما تقدم، ومن ذلك ما أخرجه عن فضالة بن عبيد : أن داود عليه السلام سأل ربه عز وجل أن يجبره بأحب الأعمال إليه ، فقال عشرأ إذا فعلت يا داود ! لا تذكر أحداً من خلقتي إلا بخير ، ولا تفتن أحداً من خلقتي ، ولا تحسد أحداً من خلقتي . (١) وأيضاً فيه مختارات من سير الصالحين كالذي يروي عن عمرو بن عتبة بن فرقد الذي كان يخرج ليلاً إلى القبور فيقول : يا أهل القبور ، قد طوبت الصحف ، وقد رفعت الأعمال ، ثم يبكي ، ثم يصفتن ... (٢) . ويبدو في الكتاب على نحو واضح اهتمامه بالتفسير إضافة إلى التحديث ، ومن ذلك تفسير الحسن البصري لمعنى الخشوع في قوله تعالى : « ویدعوننا رغياً ورهياً وكأولنا خاشعين » (٣) بأنه « الخوف الدائم في القلب » (٤) .

وقد يستعين ابن المبارك على تأييد الشرح ، فيروي عن عيسى بن سلامة أنه قال لأصحابه : سأحدثكم بيت من شعر . فجلوا ينظرون إليه ويقولون ما تصنع بالشعر فأشدم :

إن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً

« فأخذ القوم يبكون بكاء ما رأيتهم بكوا من شيء ، ما بكوا يومئذ » (٥) .

وفي الكتاب - إلى ذلك - ما يمكن عدّه مقدّمة واضحة لما تناوله فيما بعد فلاسفة المسلمين ومتصوفهم - ولا سيما ابن سينا - النفوس سنة (٤٢٨ هـ) عندما تحدّثوا عن أحوال المابدين والزاهدين « ومقامات المارفين » ، إذ نجد ابن المبارك يروي عن وهب بن منبه : « قال حكيم من الحكماء إني لأستحي من ربي عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنة فأكون كالأنجسير إن أعطي أنجرأ عمل ، وإلا لم يعمل ، وإني لأستحي من ربي عز وجل أن أعبده مخافة النار ... ولكن أعبدته كما هو له أهل » (٦) . ويشبه منهج الزهد والرفائق كتاب الجهاد الذي قام بتحقيقه تزيه حماد عن

(١) ص ١٦٦ ، وانظر « باب توبة داود وذكر الأنبياء صلوات الله عليهم » ص ١٦١ وما بعدها .
(٢) ص ١٠ ، وانظر في سير الصالحين ص ٢٩٣ وما بعدها .
(٣) سورة الأنبياء . ١٩٠ . (٤) الزهد ص ٥٥ ، وانظر أمثلة أخرى من التفسير ص ٢٨ و ٣٠ و ٤١ و ٥٤ و ٧١ و ٧٢ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ .
(٥) ص ٧٨ و ٧٩ . وانظر مثلاً آخر ص ٣٦٣ . (٦) ص ٧٢ و ٧٣ .

مخطوطة وحيدة احتفظت بها مكتبة لايزنج بألمانيا ، فكان في ١٩٢ صفحة . ويمكن القول إن أمّ طارق بين المؤلفين - عدا فرضيها - أن الحديث المرفوع ينسب إلى كتاب الجهاد غلبة بيئته ، بينما يقل في كتاب الزهد والرفائق عن آثار الصحابة والتابعين ، وقد روى كتاب الجهاد عن ابن المبارك سميد بن رحمة المصيصي ، وهو يدور حول فضيلة النضال في سبيل الله ، وأحوال المكافحين ومقامات المجاهدين ، ومكانة فريضة الجهاد في الإسلام .

ولم يؤلف عبادة بن المبارك ذبثك الكتابين المتقدمين فحسب وإنما أثنى أيضاً مصنعات أخرى منها كتاب السنن في الفقه وكتاب التفسير وكتاب التاريخ وكتاب البر والصلة ... (١) ولعل ذلك ما يفتر حبه المهام للملم والمعرفة ، وهو حب ليس يدل عليه ما سلف من لزومه بيئته للكوف على كنوزها ، وشهادة ابن حنبل به فحسب ، بل كذلك يدل عليه مثل جوابه عندما سأله -ائل من الناس ؟ قال : الماء . قال : فن الموك ؟ قال : الزهاد . قال : فن السقطة ؟ قال : الذي يأكل بدينه » (٢) ، ومثل قوله : « لا تسمى عالماً حتى لا ينظر حب الدنيا بقلبك » (٣) فقد تفلنت هذه الفضيلة في ضميره وغدت فيه طبعاً أصيلاً وخلقاً كأنه من جيالته .

ومن هنا كان من أخلاقه المشهورة الإنفاق على طلبه العلم إنفاقاً واسعاً قد قفا جملة بتحرار أبناء كانوا ، وقد عوتب مرة فيم بفرق المال على غير أهل بلده فقال : « إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث ، بحاجة للناس ... فإن تركناهم ضاع عليهم ، وإن أعناهم بنشوا العلم لأمة محمد ﷺ ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم » (٤) . ولم تكن هذه الخاصية الزكية في حب المطال لتقتصر على مبتغي المارف ، بل كان ينفق في سبيل الله ذات اليمين وذات الشمال ، وروى أنه كان يتصدق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم (٥) ، ومن استقص الحسايات المرورية له في ذلك يجئ إلى أن سجية السخاء قد باتت لدى ابن المبارك هيوأية بهواها وأريحية قادرة ، وبحكي لنا الخطيب البغدادي كيف « كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع عليه إخوانه من أهل مرو فيقولون : نصحبك

(١) الفهرست ٣١٩ . (٢) صفة الصفوة ١/١١٥ (٣) الكواكب الدرية ١/١٠٢
(٤) تاريخ بغداد ١٠/١٦٠ . (٥) تاريخ بغداد ١٠/١٥٨

يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق، فيفعل عليها، ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بفسداد، فلا يزال يتفق عليهم ويطمعهم أطيب الطعام وأطيب الخلاء، ثم يخرجهم من بفسداد بأحسن زي وأجمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ. فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أسروك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرْفها؟ فيقول: كذا. فيشتري لهم، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا وصلوا مكة وقضوا حاجتهم، قال لكل واحد منهم: ما أسروك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة فلا يزال يتفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فإذا وصل إلى مرو حصص أبوابهم ودورهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة فكساهم، فإذا أكلوا وسرّوا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه، (١).

ويشبه هذه القصة الطريفة ما يحكى من أنه كان يطمع أصحابه، في أثناء سفره من مصر إلى مكة، الخبيص، بينا هو الدهر ساهم (٢)، ومن أنه خرج مرة إلى الحج حتى إذا كان ببعض البلدان مات معهم طائر، فأمر بإلقائه، وكان قد تخلف عن أصحابه، فرأى جارية قد خرجت من دار قريبة فأخذت الطائر الميت ثم لثته ثم أسرحت به إلى الدار. فبجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة فأخبرته أنها تقيم هي وأخوها في تلك الدار، وليسوا يملكان شيئاً، وليس لها قوت كاف، وأنها يتيان منذ مقتل أبيها. فأمر ابن المبارك برد الأثمان وقال لو كيله: كم ممتك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقد عدهم منها عشرين ديناراً تكفيها إلى مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا هذا العام (٣).

ومن أخلاق ابن المبارك - إلى هيامه بالعلم والكرم - الاعتدال والحسنة في موقفه من الفرق الإسلامية لمصره، وقد مر بنا كيف كان يجب عثمان وعلياً من قبله وينسى على المنالين الذين ينكرون فضل أحدهما، ويبدو أن مبالغة الملوين أو بعض الملوين في تجريح من سوام هو ما دفعه إلى تبيان كرامة معاوية وغير معاوية من

(١) تاريخ بغداد ١٥٨/١ . (٢) البداية والنهاية ١٧٨/١ .
(٣) البداية والنهاية ١٧٨/١٠ .

تناولهم بالطن والإزراء، ومن هنا كان يفضل هذا الخليفة على أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز نفسه، على ما كان له من فضل، ويقول: «صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال: سمع الله لمن حمده. فقال معاوية: ربنا ولك الحمد، فما بعد هذا» (١)، وكأنه كان يريد أن يبين أن الصحابة بشر مثل كل البشر، وأنهم قد تفرق منهم «طائفتان» في خلاف دون أن يسلم ذلك عن إحداهما عقيدة «المؤمنين». ولعل ذلك ما أكسب حجة الفيرق الموحدة (٢).

ويمكن القول إن زعمه الأيلاف هذه عنده نمت بأسباب قوية إلى زهد الذي شهر به، وهو زهد كان يدفعه إلى الحدب على جماعة الصوفية الذين كانوا يفتنون به أو يراطلون في القصور الإسلامية كالمصيبة وغير المصيبة من مواقع الهجاء مع البيزنطيين (٣). كما كان يدفعه إلى رياضة روحية متنوعة من صيام وقيام وحفظ لسان (٤)، ومن مواعظ كثيرة توصي بذكر الله واتقائه حتى التقوى، يقول: «من حتم يذكر كتب نهاره كله ذاكراً» (٥) وكان شديد التحريم لذلك (٦)، ويقول أيضاً: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطمعوا أطيب ما فيها. قيل له: ما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل» (٧).

وجهاد ابن المبارك الذي أمضى فيه عمره، كما تخبرنا التراجم (٨)، بل وفاته إن أنصرفه من إحدى الغزوات سنة إحدى ومائتين ومائة (٩)، تدلنا - في جملة ما يدلنا - على نوع زهده وحقيقة تصوفه، فقد كان هو أن الدنيا عليه يجهل لا يبالي لها باله، بل يراى ويقاقل في سبيل الله ويشترس على البارزة والمساولة ويكون بطلاً صنديداً يقتحم بكل إقدام ميادين المارك الداميسة في القصور ويجدل أفاض الحاربيين من الروم (١٠). وكان ترطبه على حطام الغاية المترور يدفعه في الوقت نفسه لثلا يخفض هامته لأحد من الخلائق يستجدي فتانته، فكان من أجل ذلك يرسل للتجارة (١١) والمعاش تماماً كما كان يضرب في أنحاء الأرض طلباً للملم.

١/ وفيات الأعيان ٢٣٨/٢ . (٢) انظر عيون التواريخ حوادث سنة ١٨١ .
(٣) انظر تاريخ بغداد ١٥٧/١٠ وما بعدها . (٤) و (٥) و (٦) انظر في ذلك الكواكب الدرية ١٣٢/١ . (٧) حلية الأولياء ١٦٧/٨ . (٨) انظر تذكرة الحفاظ ١٠٠/١ .
(٩) المعارف ٥١١ . (١٠) انظر سيرة الجنان ٣٨٠/١ . (١١) السير ٢٨١/١ .

وقد انمكنت هذه الحياة المجاهدة الراضية أو المقتة الناشطة على شمر عبادة ابن المبارك، ولحظ ذلك الأندلسيون فشهد النووي^(١) كما قد شهد ابن سعد من قبل: وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد^(٢)، وقد مرت بنا طائفة حسنة من أشرافه في الزهد وغير الزهد مما سلكته في الحكمة. ومن يطالع آثاره الباقية، وهي لم ترد على مائتي بيت، يجد هذا الغرض يستحوذ عليها استحواداً ظاهراً، فهو كثيراً ما يحض على الزهادة في الحياة الدنيا الراحلة، والإقبال بإخلاص على الحياة الثانية الباقية، وتربية النفس على طاعة الله وتقواه، والاستمسك بمسرى الأخلاق الطيبة، والاعتبار بالأفواج المتلاحقة تترى إلى دار الفؤاد.

فهو لا يبالي في زهادته أن يعلم في دنياه القليل اليسير، مادام ذلك حلالاً لا يوبقه في إثم ولا يُرديه في عذاب الآخرة:

والمس رزقك من ذي الـ مَرشِـ الربِّ القدير
وارضَ يا ويحك من دنسك بالقوتِ اليسير
واجملنْ ذاك حلالاً تنجُ من نار السعير^(٣)

ذلك أن حياة العلماء شفيفة ورعة ليس يحقها نوم ماويل ولا اتخام قبيل:

يا طالب العلم بادر الورعاً وهاجر النوم وهاجر الشبهاً^(٤)

ومن أسباب الورع إلا تقوته فرصة من فراغ المشاغل دون أن يقضها في محراب الطاعة وجنتاب الرحمن، وكذلك إلا زلة في قول باطل ولا كلمة حرام، وأن يستبدل بما من شأنه ذلك ذكراً مسيحاً أو سكوتاً سائلاً:

واغتمم ركمتين زلني إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما همتَ بالتلطق الباطل فاجمل مكانه تسبيحاً

(١) طبقات ابن سعد ٢/٤٧٧، وتهذيب الأسماء واللغات ١/٢٨٦.
(٢) تاريخ ابن عساكر «المهد» ج ٦. (٣) جامع بيان العلم وفضله ١/٢٢٦.
(٤) روضة الفلا ٢١٣، وتاريخ ابن عساكر «المهد» ج ٦.

إن بعض السكوت خير من التلطق^(١) ق إذا كنت بالكلام قصيباً^(٢)
إن إباحة المرء لسانه أن يسترسل دونها ضابط محافظ سوف تخرجه تقيراً
كثيراً، ولعل من الخير أن يهتم بأمره، فهو الذي يعكس ما يملكه من عقل وفكر،
فليُنظر إلى صورة ما يمكنه لسانه من ذلك:

احفظ لسانك إن اللسان حريص على المرء في قتله
وإن اللسان يريد الفؤاد دليل اللسان على عقله^(٣)
وكما وعظ ابن المبارك بالزهد ودعا إليه وعظ أيضاً بالاستزادة من خير ما
يتز به الإنسان، وهو الحرس على التقوى، وما يصحبها من هجران اللطام،
ومن تسامح في الماملة، ومن مسألة ودعة:

ألا إن تقوى الله أكرم نسبة يساي بها عند الفضار كريم
إذا أنت نافست الرجال على التقى خرجت من الدنيا وأنت سليم
أراك امرأاً ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحب مقيم
وإن امرأاً لا يرتجي الناس عفوه ولم يأمنوا منه الأذى للثم^(٤)
وعلى هذا النحو ينصح بمجبل الأخلاق كالكرم الذي لا يحمده نراه من
نونه، وما أكثر أن يشر لدى ذوي الحاجة غمراً فاضرة ونشوة فرحة:

لا خير في المال لكنازه إلا جواد الكف وهنابه
يفل أحياناً بزواره ما تفعل الخمر بشرابه^(٥)

ومن حسن الخلق أن يقبض المرء الأثم الذي يمت القلب، وإذا فعل ذلك
حفاً كان سيئاً حراً ليس تصمبه شهوة ولا يقهره هوى:

(١) تاريخ ابن عساكر «المهد» ج ٦. (٢) كتاب الورقة ١٦، وروضة الفلا.
(٣) والتلطق الومية ١٥٩. (٤) تاريخ ابن عساكر «المهد» ج ٦.
(٥) روضة الفلا ٢١٣، وتاريخ ابن عساكر «المهد» ج ٦.

رأيت الذنوب تميمت القلوب وورثتك الذل إدمانها^(١)

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصبانها^(٢)

وأيضاً قال من محامد الأخلاق حسن المائنة ودمنة الصعبة والماملة البينة الرفيفة ، وأن يأخذ كل فرد نفسه بالمحاسبة والرقابة ويفو عن هفوات 'خلاته' في الوقت الذي لا يضمن عليهم بلوعظة الحسنة والنصيحة الطيبة دون تجريب ولا مذمة ولا توبيخ وإلا فقدم واحداً واحداً .

إذا صاحبت في الأسفار قوماً فكأن لهم كذي الرحيم الشفيق

بعبئ النفس ذو بصرو علم غني النفس عن عيب الرفيق

ولا تأخذ بدمعة كل قوم ولكن قل لهم إلى الطريق

فأون تأخذ بعثرتهم يفلوا وتبقى في الزمان بلا صديق^(٣)

وليداعه بن المبارك خلاصات من الحكيم تشبه أن تكون أمثالاً هادية ، ومن ذلك قوله :

أدبت نفسي فما وجدت لها من بعد تقوى الإله من أدب

في كل حالها ، وإن قصرت ، أفضل من صمتها عن الكذب

إن كان من فضة كلامك يا نفس فأون السكوت من ذهب^(٤)

وقوله وقد وقع رجلاً :

وهون وجددي أن فرة ، بيننا فراق حياة لا فراق ممات^(٥)

وقوله :

(١) بهجة المجالس ٢/٢٣١ ، ومختصر جامع بيان العلم ٨٥ ، وأعلام الموقعين ١/١١١ .
(٢) ابن عساكر « العهد » ج ٦ ، وعبدالله بن المبارك للمحسن ١٦٤ . وقد نسبت الأبيات في مناقب الشافعي ٢/٨٤ إلى الإمام الشافعي . (٣) تاريخ ابن عساكر « العهد » ج ٦ .
(٤) طبقات الشعراء ١/٦٠ ، وبهجة المجالس ١/٢٤٦ .

آخر العلم لذيذ طعمه وبديء الذوق منه كالصبير^(١)

وتلك الأمثال اجتمعا ابن المبارك من تجاربه الواسعة التي خبر فيها الحياة ، وهي تجارب كثيراً ما كشفت له قلة الدنيا وهوان أمرها ، فها هي ذي مرة

المداف صبة الفجائع :

دنيا تداولها العباد ذميمة شيدت بأكره من نبيع المنظّل

وبنات دهر لا تزال مملئة فيها فجائع مثل وقع الجنندل^(٢)

إنها حياة فياضة بالمهوم مترعة بالكيد ، ما إن يستقيم لأمر فيها شأن حتى

يأخذ بالتيل ، وإن لقمينا أن يجرها اللسان ، فإذا أوتي نعمة حفظها وقدرها ،

وشكر عليها مولاه ، وانثق المصاحي التي تمنح كل نعمة ، وتزيد كل خير . ذلك أنه

لا يحظى فيها براحة ولا يسمد بهناء ما لم يقدم بين يديها من الصبر والاحتفال قرباناً

سبباً ، كما أنه لا يدري ميقات مصيبة ولا ميعاد حادثة ، إنما يصيبه كل ذلك بقية

من القدر الميسر القاهر :

هوميك بالعيش مقرونة فاقطع العيش إلا بهم

إذا تم أمر بدا قصه ترقيب زوالاً إذا قيل تم

إذا كنت في نعمة فارعبها فأون المصاحي تزيل النعم

وحلم عليها بشكر الإله فأون الإله سريع النقم

حلاوة ذيك مسمومة فاقطع الشهد إلا بسم

فكم قدر ديب في مهلة فلم يعلم الناس حتى هجم^(٣)

وكما استنبط ابن المبارك أمثاله من مدرسة الحياة المريضة جعل يرسل نظرات

بيدة متأملة في ختام تلك الحياة للاعتبار بالناس الذين يتوون على اختلاف درجاتهم

(١) عبدالله بن المبارك للمحسن ١٥٩ . (٢) كتاب الورقة ١٦ .
(٣) عبدالله بن المبارك للمحسن ١٦٨ ، وانظر البيهقي الأول والخامس في الورقة ١٦ .

في دنياهم التي عاشوا:

قد تصفحت قبور الـ قوم في يوم المنيبر
لم تميزم ولم نـ عرف غنياً من فقير
خمدوا فالقوم صرعى تحت أشقاف الصخور^(١)

وقد كان كلما أرسل هذه النظرات الواهية انقلب خبيراً منذراً وواعظاً فاسحاً
للتفكر في ذلك المسير المحتوم وردّه ، وما قد يكون وراءه من هويّة في سوء
الهداب :

وكيف قرّت لأهل العلم أعينهم أو استلذوا لذيق النوم أو هجموا؟
والموت يندرم جهرًا علانية لو كان للقوم أسمع لقد صموا
والنار ضاحية لا بد موردم وليس يدرون من ينجو ومن يقع^(٢)
وأم ما لمداقة بن المبارك في هذا الشأن قصيدة هي أطول ما في أيدينا من
قريضه ، إذ تقع في ستة وثلاثين بيتاً رواها له الحافظ ابن عساكر ، ويقال في سبب
تأليفها إنهم حفروا بخراسان حفيراً فوجدوا فيه رأس إنسان ، فوزنوا سنناً من أسنانه
فإذا فيها سبعة أسانير^(٣) . فاعتز الشاهر ابن المبارك لهذه الواقعة ، ومضى يتصوّر
ضخامة السابقين وعظمة المتقدمين ، ويتدكّر كيف طوتهم يد المنية ... وسرقات
ما فرقت عيناه بفزارة :

تذكرت أيام ما قد مضى فهاج لي الدمع سحاً هتونا
فرددت في النفس ذكراً ليحدث ذلك للقلب ليثنا
وإستمر في تفكيره بذلك الأثر العجيب ، ويجعل منه عيرة فاطمة باقية ،

(١) تاريخ ابن عساكر د المهد ج ٦ . والشير معدر عثر أي كبا ، وهي في المخطوطة
هكذا القير . (٢) المصدر السابق ج ٦ .
(٣) الأسانير جمع إستانر وهو أربعة مثاقيل ونصف ، والنتقال درم وثلاثة أسباع درم ، ووزن
الدرم ٣.١٢ غ ، فالإستانر الواحد ٢.٠٥ غ ، أي وزن هذه السن يقارب ١٥٠ غ !!

وكأنما تخطر له حوادث أخرى لا تقل عنه هفلة ولا إلتفاتاً ، فيتذكر تلاحق التواب
وتتابع الوقيبات ، فيخاطب نفسه :

وما إن نزال على حادثٍ يطيرُ له القلب روعاً حزينا
وفي كل يومٍ وفي ميسيةٍ تكون النوائب بالموت فينا
ولما قرباً ترأشُ به وإما شمالاً وإما يمينا
إذا سكن الرُوع عن ميتٍ بدهنا بآخر ينمى السكونا
وكيف البقاء على ما أرى مشؤنين مما قليل يعينا
وما هم أولاء كرامٍ أمزة يوارون في مقابرهم ، وفهم من كان جيباً إلى
أهله ، ولم يرح من قلوبهم حتى بعد وفاته ، وفهم الوقور الشريف والحق الصالح ،
وفهم الاستحاب والأقارب ... كل أولئك غودروا ، وآب أشياهم وم يتأوهون
عليهم وفي أعينهم دموع آسية وفي قلوبهم لوعة دائية :

دفنتُ الأحيّة لم آلها أهيل عليها تراباً وطينا
وكانت تمرّ على أهلها وأعزز بها اليوم أيضاً دفيننا
لقد غيب الموت في لحده وقاراً نيللاً وبرراً وديننا
وصحبي والأهل فارقتهم وليت أرام رفاقاً عزينا
كان نأذب أهلهم حين عشرت حب الحيننا
وإخوان صدق لحقتنا بهم فقد كنت بالقرب منهم ضيننا
وأوحشت الدار من بدمهم أظل على ذكرهم مستكيننا ...

هكذا قاموس الحياة يجري عليه أفواج البشر من دون أن يتأني عليه منهم
ملك ولا سؤفة ، ولا يفلت منه قديم ولا أخير ...

وإن كنت بالعيش مفترّة تمنيك نفسك فيها الظنونا
فنادي قبورك ثم انظري مصارع أهلك والأقربينا
إلى أين صاروا وماذا لقوا وكأوا كئلك في الدؤور حيناً؟
وإن الملوك وأهل الحجا ومن كنت ترضين أو تحذرين؟
وإن الذين بنوا قبلنا قروناً تتابع تلو القروننا؟

ويعود في نهاية القصيدة إلى خبر الحفير وما أدهشه من أمر السنين الفخمين،
ويتذكر بقية الأسنان الثلاثين، ويتخيل صورة صاحبها وعظم جسمه، ويتساءل
ماذا كان يكفي هؤلاء وما كان يشبههم؟ إن النفس لتضول أمههم حقاً، وتقول،
كيف لا وقد أتى الموت على أولئك الجبارة الأقوياء؟

أنتيت بسنين قد رمتنا من الحصن لما أثاروا الدفينا
على وزن مننين إحداهما ثقل به الكف شيئاً رزينا
تلاوت أخرى على قدرها تباركت يا أحسن الخالقينا
فماذا يقوم لأفواههم وما كان يهلاً تلك البطونا؟
إذا ما تذكرت أجسامهم تصاغرت النفس حتى تهونا
وكل على ذلك لاقى الردى فبادوا جميعاً فهم خامدونا^(١)

وهذه الحكمة التي علبت على شمر ابن البارك، بما فيها من زهد ووعظ
وعبرة كانت تدفعه - من جهة أخرى - إلى جهاد قرط وملازمة الثنور والحض
على هذه الفضيلة، وقد مرت بنا آياته التي كتبها لأبي المتادية والفضيل بن عياض
في ذلك، وما رواه له الخطيب البغدادي بيتان بصورات كيف كانت زهادته قوة
الأخيرة أيضاً في حجة المجالس ١٥٥/٢.

دافعة إلى الغناء الحديث على درب النضال الصادق في سبيل الله، يقول:
بفض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفسي بما ليست له ثمننا
إني وزنت الذي يبقى ليعدله ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا^(١)
واسداده بن المبارك إلى جانب أشعاره في الحكمة والجهاد آيات في مدح بعض
المصاحبة من أمثال عثمان وعلي^(٢)، أو في مدح أئمة العلم كابي حنيفة وميخرب
كدام، وقد قدمت له مقطوعة في الإشادة بعم الإمام الأول، وما روي له فيه
أيضاً قوله:

رأيت أبا حنيفة كل يوم يزيد نبالة ويزيد خيرا
وينطق بالصواب ويصطفيه إذا ما قال أهل الجور جورا
يقايس من يقايسه بلب فن ذا يحملون له نظيرا
كفانا فقد حماد وكانت مصيبتنا به أمراً كبيرا
فرد شاة الأعداء عنا وأبدى بعده علماً كثيرا^(٣)
وما قاله في مسمر بن کدام:

من كان متمسكاً جليساً صالحاً فليأت حلقة مسمر بن کدام
فيها السكينة والوقار، وأهلها أهل المصاف وعلية الأرقام^(٤)
وله بيتان في تأبين الإمام مالك أوردتها في الرقاء، وثلاثة أبيات في ذم
الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ويشرون بالباقية الفانية، يقول:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا خلق تبشع بالدين أموال المساكين

١ (تاريخ بغداد ١٠/١٦٦ . ٢) انظر تاريخ ابن عساكر « للمهد » ج ٦ .
٣ (عبدالله بن المبارك للحنسب ١٠٨ . وحامد هو حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة
٤ (تذكرة الحفاظ ١/١٨٩ .

صيرت دينك شاهيناً تصيد به وليس يفلح أصحاب الشواهدين^(١)

وعلى الرغم من أن كثرة شعر ابن المبارك تسلك في القريض الحسن فأوشه قلها ارتقى إلى مستوى الإبداع الفني السامق، وإن لم يكن يخلو من ذلك، إذ قد يلمح فيه إيقاع مقسم كما في بيتيه اللذين مدح بهما حماد بن زيد، وقد تقدما، أو يلمح فيه قوة شعرية واضحة وجمال ألين كما في قوله الذي رواه ابن عبد البر:

أحضر طمامك وأبدلته لمن أكل

وأحلف على من أبي وأشكر لمن فعلا

ولا تكن ساربي المرص محتشماً من القليل فلست الدهر محتفلاً^(٢)

وعما يلمح في شعر عبادة بن المبارك أن أغلبه على روي النون، وهذا إن لم يكن اعتياداً نفسياً « لاشمورياً » عليه - قد يدل على اقتصادنا لأشعاره على روي سائر الحروف، أو جملة منها، على نحو بتلام مع فونياته، وربما أيد ضياع كثير من قصائده أو مقطوعاته أن ابن أبي حاتم الرازي قد حكم له بأنه « من شعراء الفقهاء المبرزين »^(٣)، مما يرجح أنه وقف على مجموعة سالحة له.

ب - الإمام الشافعي :

ولد أبو عبادة محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي^(٤) في مدينة غزة^(٥) سنة خمسين ومائة للهجرة^(٦)، ويبدو أن أباه إدريس بن العباس الهاشمي كان قد

- ١ (عيون التواريخ حوادث ١٨١ ، والتاج الممثل ٥٧ .
- ٢ (هجة المجالس ٨٥/٢ . والساري : ثوب وقيق تادر . أي لا تكن دعوتك ضيقة .
- ٣ (المرح والعديل ١٧٦/٢/٢ . وانظر البداية والنهاية ١٧٧/١٠ إذ وصف شعره بأنه حسن
- ٤ (انظر في نسيه طبقات الشافعية لابن هداية الله الحسيني ص ١ والنجوم الزاهرة ١٧٧/٢ .
- ٥ (طبقات الشافعية للأسنوي ١١/١ . وقيل بل ولد في اليمن (انظر معجم الأدباء ٢٨٢/١٧) وقيل وقد تأول بعضهم ذلك بأنه ولد في أرض أهلها قبائل يمنية (انظر معجم الأدباء ٢٨٢/١٧) وقيل انه ولد في عسقلان أو مقي ، انظر شذرات ٩/٢ . لكن القول الأول الذي يجعل مولده في غزة هو الأرجح ، لأنه ينسب الى لسان الشافعي نفسه انظر مناب الشافعي للرازي ١٤ ، ولأن مجموعة من العلماء قد رجحت « انظر معجم الأدباء ٢٨٢/١٧ - وتاريخ الخليل ٣٧٤/٢ ، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ٤١ . (٦) طبقات الشافعية لابن هداية الله ١ .

اضطر إلى هذه المدينة النائية عن موطن قريش ، طلباً للرزق والمعاش ، غير أنه توفي وابنه لما يزل في المهدي ، فرجعت به أمه الأزدية إلى مستقر قرابة في مكة ، وهو ابن سنتين^(٧) .

وما إن نما عوده بعض النمو حتى أسلته والده الحانية إلى الكتاب ، إلا أنها لم تكن تملك ما تعطى شيخه من أجر^(٨) ، وهنا بدأت أحاسيس الفنى النافى . الموهوب تتفتح لبثق سبل المهدي الحق بإخلاص الماملين وجهاد الطالبين ، فكان كلما انشغل المعلم خلقه على التلازمة ، جاعلاً هذه النوبة بمثابة أجر يسديه إليه ، وتخبره الروايات أن مؤدبه قد رضي منه هذا الأجر رضاً تاماً^(٩) .

ولم يطو القلام اليتيم من عمره سبع سنين حتى استنظر القرآن^(١٠) ، ثم شرع في مرحلة علمية ثانية ، منذ هذا الوقت المبكر ، فكان يجلس على مقربة من جلته العلماء ليحفظ ما استطاع من أحاديث رسول الله ﷺ^(١١) ، ولم يلبث أن استهوته حكمة النبوة ، فصار يكتبها على ما يستطيع توفيره من قِطع خرف أو دفء أو كرب نجيد أو أكتاف جمال أو ظهور أوراق كان يطلبها من دواوين الحكومة^(١٢) ، حتى ملأ من ذلك جره قديمة كانت لدى والده^(١٣) .

وعلى عادة من كانوا يتقدمون لتل القضاة من منابها المذبة الصافية ضرب محمد بن إدريس في بوادي هذيل^(١٤) وغيرها من أمهات القبائل التي لم ينشأ لسانها لحن ولا رطانة ، وهناك جمع كثيراً من لغتها وأشعارها . ولكن حين أتته السقي عوضته حنو الأبو أزعجت إليه من يديه سبيل ما هو مبيتاً له من أوام المشوار ، وقد حكى الشافعي قصة اتجاهه إلى الدراسات الفقهية فقال : « لما رجعت إلى مكة جملت أشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب ، فرأى بي رجل من الزبيديين فقال لي : يا أبا عبادة عز علي ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سددت أهل زمانك »^(١٥) . وبذلك استيقظت مبوله التي كان استجاب

- ١ (صفة الصفوة ١٤١/٢ . ٢) و (٣) و (٤) و (٥) مختصر جامع بيان العلم ٤٩ .
- ٦ (معجم الأدباء ٢٨١/١٧ ، و صفة الصفوة ١٤١/٢ ، والكرب : أصول السلف الغلاظ الراشدين ، وظهور الأوراق أي ما كان مكتوب الوجه من الورق المشتمل في الدواوين .
- ٧ (مختصر جامع بيان العلم ٤٩ . ٨) و (٩) الميثاق للذهبي ٢٢٨ .

لها منذ ختم القرآن وجمع طائفة من الأحاديث .

وكان في مكة أمثال سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي فتروا عليها (١) يعرف من علوم الدين 'عرقاً طيبة' وكان اسم مالك بن أنس قد ذاع في كل مكات ، فاستمر الشافعي كتابه 'الموطأ' من رجل مكي وحفظه في نسع ليال ظاهراً (٢) ، ولم يلبث أن قصد إليه ولما يتجاوز اثني عشرة سنة (٣) . وقد انكب على مسينه بنيل وبسريه وبدفه إعجاب مالك بذكائه إلى الامعان في اهتمامه العلمي ، ويروى أن إمام دار الهجرة قال عن الشافعي : 'إن بك' أحد يفلح بهذا العلم' (٤) وقال أيضاً : وما أتاني قرتي أفهم من هذا القتي ، يعني الشافعي (٥) . وقد حفظ له تلميذه البر' فضله ، وظاهره يقول بعد أن بلغ ما بلغ : 'مالك معلمي واستاذي ، ومنه تعلمنا العلم ، وما أخذنا أسن' علي' من مالك ، وجملت مالكا 'حجة' فيما بيني وبين الله تعالى (٦) . وفي هذه الفترة مره بالدينية وال' على اليمن فكلمه بعض القرشيين بشأن الشافعي لعله يجده له عملاً عنده ، فقبل منهم وسحب منه وكلفه بوظيفة بسيطة ، فقام بها ، فأسلم إليه أخرى ، فنهض بعثها ، وكان يأتي المتعمرون من اليمن إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام ، فكانت أشه تنحري أخباره منهم فيثبون عليه (٧) . ويبدو أنه كان يذهب بين القينة والقينة إلى مكة ليلق والده ، وأنه كان يقابل شيوخه الذين تلمذ لهم من قبل ، وبأخذ عنهم من جديد . وما إن بلغ من العمر خمس عشرة سنة حتى قال له مسلم بن خالد شيخه : 'أفت' فقد آن لك أن تفتي' (٨) ، كما بلغ في هذه السن منزلة كان يبلي فيها من حفظه من الموطأ على الحجاج المصري (٩) الذين كانوا يقدمون على مالك بعد أن يؤدوا الفريضة ، وهو ما قرأه إلى ذهنه فكرة الذهاب إلى ديارهم فيما بعد .

وربما أحسن الشافعي من نفسه مقدرة على الحجاج فلذا به - في إحدى لقاءاته لمالك - يراجه القول وينظره ويتزاق في شمار المراهقين أو بعض المراهقين .

(١) الروايات ١٧٢/٢ . (٢) معجم الأدياء ٢٨٤/١٧ . (٣) حلية الأولياء ٦٩/٩ . (٤) وفيات الأعيان ٣٠٦/٣ . (٥) مناقب الشافعي للرازي ٣١ . (٦) الديباج الذهب ٢٢٨ . (٧) مختصر جامع بيان العلم وفضله ٤٩ . (٨) تاريخ الخميس ٣٧٤/٢ . واظر حفة السفرة ١٤١/٢ إذ يقول ابن الجوزي : 'أذن له مسلم بن خالد الزنجي بالفتيا وهو دون العشرين' . (٩) نور الأبحار ٢١٩ .

من المبالغة في المراء والإكثار منه ، فقال له مالك : 'إذا أردت : فإن قيل قلنا ، فأقصد هنا ، وأشار بيده إلى جهة العراق ، إشارة إلى أصحاب أبي حنيفة لأنهم أهل نظر وجدال' (١) ، فخرج 'المفتي الثاني' من عند شيخه منضياً (٢) لأول مرة ، وقصد العراق واتى محمد بن الحسن وأخذ عنه (٣) ، ولم يكتب بالذهب إلى 'هنا' أي العراق ، كما أشار عليه أستاذه ، بل ضرب أيضاً إلى 'هناك' بلاد فارس والمناطق القاصية يلقى أئمة العلم وينسب من مآثرهم حتى صار ابن إحدى وعشرين سنة (٤) ، ثم عاد إلى العراق وكان الرشيد قد استخلف منذ سنة سبعين ومائة ، فأكرمه وولاه الصدقات بنجران (٥) ، لكن مودته التمسككة الوفية لإمام دارالمسجدة قد مرهجت به شطر المدينة المنورة ليراء وقد احتق بعد أن تركه فقيراً ، ومن ذلك الحين جعل أستاذه يبعث إليه كل عام من هداياه إلى أن لبي مالك نداء ربه سنة تسع وسبعين ومائة (٦) .

وخبر تواتره صدقات نجران وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، أي عام إحدى وسبعين ومائة ، بنفي الروايات التي تجعل زيارته لبغداد مرتين فحسب ، إحداهما سنة خمس وتسعين ومائة ، والثانية سنة ثمان وتسعين ومائة (٧) ، فهو قد قصد إليها سنة إحدى وسبعين ومائة أو قبلها كما رأينا ، وقصد إليها سنة خمس وسبعين ومائة (٨) وستة ثمان وسبعين ومائة (٩) ، واقيد إليها سنة أربع وثمان ومائة (١٠) ، لاتبهامه بمؤازرة خراجي (١١) أو حلوي (١٢) كان يريد خلع بيعة الرشيد ، وذلك عندما تسلّم الشافعي صدقات نجران باليمن ، غير أن كل شيء أكد برأيه بما روي به (١٣) ، ففما

(١) و (٢) المحمدون من الشراء ١٣٧ . (٣) المحمدون من الشراء ١٣٨ .

(٤) و (٥) ثمرات الأوراق ٢٨ . (٦) المصدر السابق ٢٨١ .

(٧) انظر الانشاء ٦٧ ، وفيات الأعيان ٦٣/٣ ، وطبقات الحنابلة ٨٠/٢ .

(٨) و (٩) انظر تاريخ أبي الفداء ٢٨/٢ ، وتمة المختصر في أخبار البعير ٢١٥/١ . على أن من التسيد أن تكون هاتان الزيارتان 'سنة خمس وسبعين ومائة وثمان وسبعين' هما الزيارتين اللتين قام بها إلى بغداد بعد شهرته سنة خمس وتسعين ومائة ، وأن تكون سبعين محرمة من تسعين ، والله أعلم . (١٠) انظر حلية الأولياء ٨٥/٩ . (١١) حلية الأولياء ٨١/٩ .

(١٢) معجم الأدياء ٢٨٧/١٧ ، والروايات ١٧٤/٢ . (١٣) انظر مناقب الشافعي للبيهقي ١١٢/١ ، والروايات ١٧٤/٢ ، وحلية الأولياء ٨١/٩ . وفي النهرست رواية غريبة تنسب إلى أنه

عنه أمير المؤمنين

وتهمته تدفع بدورها ما يقال من أن محمد بن الحسن وأبا يوسف قد كادا له عند الرشيد وأوغرا صدره عليه (١) ، وليس مثل هذه الأقوال في حقيقتها إلا كمثل الذي لا يقدر أن يمدح امرأً دون أن ينال سواء بدمعة ، وكان دنيا الصلاح لا تسع من الناس إلا واحداً فرداً ، فالصادر تنبهاً أن محمد بن إدريس كان يحل محمد بن الحسن ويقول فيه كما مرُّ بنا من قبل : « ما رأيت عينا مثل محمد بن الحسن ، ولم تلد النساء في زمانه مثله » (٢) ، وأن محمد بن الحسن - من جهته - قد ألان له قلب الخليفة وشفع له عنده ، وعزم عليه أن ينزل في داره ، فكانت تلك فرصة مخلوطة استطاع الشافعي أن يكتب فيها كثيراً من مصنفات الحنفية (٣) ، ويبدل على النسخ في سبيل ذلك ما تبقى من إعطية الرشيد بعد أن تفرقاً منها على بوايه (٤) ، وأيضاً فإنه يُروى عن أبي حسان الزياتي أنه قال : « ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل المم تنظيمه للشافعي ولقد جاءه يوماً فلقبه ، وقد ركب محمد بن الحسن فرجس محمد إلى منزله وخلا به يوماً إلى الليل » (٥) .

ويؤيد الشافعي إلى مكة المكرمة وقد فضجت ثقافته وتبحر إلى أهد غاية في فقه الرأي إضافة إلى فقه الحديث ، وصار يفيض على خلق الدارسين في البيت الحرام ، وعلى الحجاج القاديين من كل قنح حقيق ، ولبث على هذه الشاكلة حتى عام (١٩٥ هـ) عندما ذهب إلى بغداد وأقام بها حولين يدرّس ويصنف (٦) ، ثم رجع فترة قليلة إلى أم القرى (٧) وسرعان ما انقلب إلى العاصمة العباسية سنة ١٩٨ هـ (٨) فأقام فيها أشهراً معدودات على برم منه بأهل الكلام وهواة المراء الذي لم يمسد يلقى الإفراط منه أي خطاً بعدما استوى له علمٌ قادر وحكمة بالغة ، ويتجه إلى

- = انهم بتجارة رجل من بني أبي لب بنامية للغرب « انظر القهرست ٤٢٩٤ .
١) انظر حلية الأولياء ٨٥/٩ .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ١٦١/١ .
٣) حلية الأولياء ٨١/٩ .
٤) حلية الأولياء ٨١/٩ و ٩١ .
٥) وفيات الأعيان ٣٠٦/٣ وانظر تفدير كل منها للآخر مناقب الشافعي للبيهقي ١٥٨٤١ و ١٥٩٩ وانظر مقللة للشيخ مصطفى عبدالرزاق في الرسالة ج ٢٥ ص ١ وفيها بين فساد خبر وشي أبي يوسف ومحمد بن الحسن بالشافعي عند هارون الرشيد .
٦) شذرات الذهب ٩٤٢ .
٧) و ٨) الأشباه ٦٧ .

أرض كينانة وهو يقول :

لقد أصبحت نفسي تروق إلى مصر ومن دونها أرض المهامه والقفر
فوالله ما أدري اللوز والبنى أساق إليها أم أساق إلى قبري (١)
وتذكر المصادر أن الشافعي قد لقي في مصر إكراماً واسماً ، وأنه كان محبوباً إلى الخاس والمأم لطفه وفقه وحسن كلامه وأدبه وحجته (٢) ، وأنه قد سار ذكره في البلدان وقصدته الناس من الشام واليمن والبراق وسائر الأقطار لثقتهم عليه والرواية عنه وسماع كتبه (٣) ، وأنه على زهادته في التقرب إلى الولاية كان مقدماً عند العباس بن عبدالله والشريفي بن الحكم البخاري (٤) من الأمراء على مصر في الفترة التي عاش فيها . وقد تمكن الإمام الشافعي في مصر أن يستكمل أبحاثه ويتابع تأليفه الذي بدأه من قبل وأكثر ، نافذاً إلى آرائه الجديدة التي عدل فيها شيئاً من أحكامه التي استنبطها في الحجاز أو العراق ، فأصداً فيها الحقيقة ما استطاع ، ولبث يدرّس ويؤلف حتى وفاته سنة (٢٠٤ هـ) (٥) ، فدفن في القرافة المصرية قرب جبل المقطم (٦) ، ولا يزال قبره إلى اليوم في شارع الإمام الشافعي في مسجد حمل اسمه ، وأساس هذا المسجد مدرسة أقامها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبر الشافعي سنة (٥٧٢ هـ) ، ليفقه الدارسون على مذهب هذا الإمام الكبير ، ثم أنشأ لها السلطان الكامل محمد بن العادل قبة خشبية منقطة بالرخام سنة (٦٠٨ هـ) (٧) . ثم جدد الخديوي توفيق سنة ١٣٠٩ هـ مسجد الإمام الشافعي على النحو الذي نراه عليه اليوم .

ومعنى ما تقدم أنه لا يتمذر على الباحثين أن يجدوا الطلوط المريضة حياطة

- ١) طبقات الشافعية لسبكي ١٦٢/١ ، ومجم الأدباء ٣٧٠/١٧ ، والحمدون من الشعراء ١٣٩ ، والفرد الفريد ٢٢/٣ . ٢) مجم الأدباء ٣٢١/١٧ . وانظر حلية الأولياء ٨٧/٩ .
٣) تهذيب الأسماء واللغات ٤٩/١/١ . ٤) مجم الأدباء ٣٢١/١٧ .
٥) طبقات الشافعية لابن حدياء الله ٣ . ٦) وفيات الأعيان ٣٠٦/٣ .
٧) وانظر وصف مسجد الإمام الشافعي وقت زيارتها وحجتها في الفارة الإسلامية للدكتور كمال الدين سامح « طبعة المعهد الإسلامي بالقاهرة ص ٦٠ وما بعدها .

هذا الإمام الفذ، كما أنهم لا يلقون دمشقاً عظيمة في تحديد السنين المتلفة بوقائع حياته، كما قال هفتنك (١)، وذلك إذا ما قرأنا الروايات الكثيرة التي مرصت لها، واستقصوها في دقة.

وقد ترك الشافعي من بعده ثلاثة أولاد أبا عثمان محمداً الذي كان قاضياً في مدينة حلب، وفاضلاً وزينب، وتوفي ابن آخر له يدعى الحسن وهو طفل (٢)، وكذلك ترك ذكراً حسناً في مجالات الأخلاق العالية والصفات النبيلة والعلم والشعر. فكل النواجم تؤكد تقوى هذا العالم الجليل وأنه لم تعرف له صبوة لا في شباب ولا كهولة (٣)، وأنه قال لمن أشار إليه بمجالسة الوالي ليكسب منه: «من لا تمزه التقوى فلا عز له» وأقصد ولدت بنزوة، ورثت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بقنا جياماً قط» (٤)، وأنه لما سمع الحارث بن يزيد يتلو من القرآن قوله تعالى: «هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيمتدرون» (٥) تغيّر لونه واقترب جلد. (٦)، وأنه لم يخلف باقة لا صادقاً ولا كاذباً (٧)، وأنه كان ماراً في السوق رجلاً يسفه على رجل من أهل العلم فقال لأصحابه: «زهوا أسمعكم عن استماع الخنا كما تزهون السننكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخيت نهي في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردت كلمة الدفبه لسد رادها كما شقي بها لائلها» (٨).

وكان الإمام التقي يحتم القرآن كتاب الله كل ليلة ختمه، فإذا كان نهر رمضان ختمه في اليوم مرتين (٩)، ويروي الحسن الكرابيدي أنه بات مع الشافعي غير ليلة «فبكان يصلي نحواً من ثلث الليل، فما رأته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه وللجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمر بآية عذاب إلا تموهدها فيها وسأل النجاة لنفسه

١ (دائرة المعارف الإسلامية ٧٣/١٣ . ٢) انظر في أولاده، مناقب الشافعي للرازي ٣١ .
٣ (مرآة الجنان ٢١/٢ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٥٩/١/١ . ٤) الهدون من الشعراء ١٤٠ . ٥) سورة المرسلات ٣٦ . ٦) إحياء علوم الدين ٣٢/١ .
٧ (المصدر السابق ٣١/١ . ٨) طبقات الحنابلة ٢٨٣/٢ .

والمؤمنين» (١).

وكان الشافعي رحمه الله عنماً زاهداً في متاع الدنيا يقول عن نفسه: «وما شبت منذ ست عشرة سنة، لأن السبع ينقل البدن ويقسي القلب ويزيل الغلظة ويحبب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة» (٢)، وكذلك كان يقول: «من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب» (٣). ويقول: «من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخنوع» (٤)، ويقول: «التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة» (٥). وكان عدلاً (٦) لطيفاً (٧) كريماً (٨) شجاعاً (٩) ذكياً (١٠) مخلصاً في عدله لا يبيغي من ورائه شهرة ولا رياء، يقول: «ما نظرت أحداً قط فأجبت أن يخطفني» (١١) ويقول: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلي منه حرف» (١٢) ويقول: «من لا يصف نفسه لم ينفسه عليه» (١٣).

وتصور الروايات الإمام الشافعي رجلاً مديد القامة سائل الخلق قابل لم الوجه خفيف المارضين طويل العنق آدم يحضب لحبته حسن الصوت كريم الوجه عظيم العقل أليف السمعت مهيأ فصيحاً (١٤).

وتذكر تلك الروايات أن الشافعي لم يكن في الطراز الأول من الفقهاء والمحدثين غسب، بل أيضاً كان عالماً بكلام الصحابة وآثارهم واختلاف الأقول العلماء (١٥) والتفسير (١٦) والقراءات (١٧) والألسان (١٨) والتاريخ (١٩) والعقب (٢٠) والزمي (٢١)، وكان صادق الفراسة (٢٢) صافي النفس فأخذ البصيرة، وكان حجة في

١ (٢ و ٣) الإحياء ٣١/١ . ٤ (تهذيب الأسماء واللغات ٥٥/١/١ .
٥ (المصدر السابق ٥٦/١/١ . ٦) التاج المكلل ١٠٥ . ٧) مرآة الجنان ٢٦/٢ . ٨) و ٩) تهذيب الأسماء واللغات ٥٢/١/١ . ١٠) الإحياء ٣٣/١ .
١١ (تهذيب الأسماء واللغات ٥٣/١/١ . ١٢) الإحياء ٣٢/١ .
١٣ (انظر صفاته الحقة في تهذيب الأسماء واللغات ٦٤/١/١ . ١٤) وفيات الأعيان ٣٠٠/٣ .
١٥ (مناقب الشافعي للبيهقي ٢٨٤/١ . ١٦) المصدر السابق ٢٧٦/١ .
١٧ (طبقات الشافعية للأسنوي ١٤/١ . ١٨) مرآة الجنان ١٩/٢ .
١٩ (٢٠ و ٢١) تهذيب الأسماء واللغات ٦٥/١/١ و ٦٦ .

اللفظة عند ابن هشام (١) وثلث (٢) والأزهري (٣) ، حجة في النحو عند المازني (٤) ، وقد قرأ عليه الأحمسي أشعار هذيل ودوان الشنفرى (٥) ، وكان يروي إضافة إلى ذلك لثلاثمائة شاعر مجنون (٦) ، ولثلاثين آخرين أسامهم عمرو (٧) ، فضلاً عن القلاء وسوى السمرين من الشعراء . ومن هنا قال أحمد بن حنبل قوله الحق : « ما أخذت من يده بحبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في رقبته مثق » (٨) ، وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام : « ما رأيت رجلاً قط أكل من الشافعي » (٩) .

وبدعي أن يكون الفقه رأس علومه التي حذفتها ، ومن يرجع إلى تاريخ الإمام الشافعي وسيرة حياته يجده لا يعد نفسه لهذا الأمر بمحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره فحسب ، بل أيضاً بجمعه كثيراً من الأحاديث النبوية في صدره وبعد صدره ، وبالاعتناء بالنحو ، وعلوم الدين المختلفة كآثار الصحابة وخلاف العلماء والتفسير والقراءات مما مر بنا من قريب ، وبالتبصر المستبصر في النسخ والنسوخ والمسام والخاص والوقف والابتداء ونحو ذلك من البحوث الإسلامية (١٠) .

أضف إلى ذلك أنه استوعب استيعاباً شاملاً لمدارس الفقه في عصره ، على اختلاف مناهجها ، فدرس فقه مالك منذ يفاخته ، وأخذ فقه أبي حنيفة عن محمد بن الحسين ، واتبع إليه فقه الأوزاعي من طريق شيخه عمرو بن أبي سلمة ، وأطلع على فقه الليث بن سعد بواسطة يحيى بن حسان ، ووقف على دراسات الشيعة ومجرب المتزلة في هذا اللون من العلم ، إضافة إلى بحوث أهل السنة ودراساتهم ، وتلمذ لعلامة مكين ومدنيين كما تلمذ لآخرين بجاينين وهراقين (١١) ، وخلص من كل ذلك إلى منحنى وسط بين مناهج أهل المدينة ومناهج أهل العراق ، فهو لا يتجاوزها قرآناً أو نبوياً ثابناً ، ما وجد ذلك ، ويروي أنه قدم بيت المقدس فصاح فيه وقال : سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ (١٢) . وكذلك كان

- ١ (مجمع الأدباء ١٧/٢٩٩ . ٢) (٣) مرآة الجنان ٢/٢٠ . وانظر القاموس المحيط ١١١/٢ ، إذ ينقل للشافعي قولاً في حد منى الفراء والساكين . ٤ تهذيب الاسماء والقبائل ٥٠٠٠٤١ . ٥) مرآة الجنان ١٩/٢ و ٢٠ . ٦ تهذيب الاسماء والقبائل ٥٠٠٠٤١ . ٧ مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٥٠ . ٨ تهذيب الاسماء والقبائل ٥٠٠٠٤١ . ٩ وفيات الاعيان ٣/٣٠٥ . ١٠ انظر مجمع الادباء ١٧/٢٢٨ و ٣٠٥ . ١١ انظر في شيوخه مناقب الشافعي للرازي من ٢٠ ، والوفاء ٢/١٧٢ (١٢) تاريخ الامم والجليل ١/٢٦

يقول : « إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت » (١) . ومن شعره في هذه الطريقة قوله :

كلّ العلوم سوى القرآن مشفلةٌ إلا الحديثُ وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال : حدثنا وما سوى ذلك ومواس الشياطين (٢)

ولعل ذلك مدعاة تسمية البغداديين له بناصر الحديث (٣) ، ولعله أيضاً سر ميله عن أهل الكلام وكرهته المتزلة وقوله فهم : « حكيم في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجر يد ، ويحملوا على الأهل ويطاف بهم في المشائر والقبائل ، يقال هذا جزء من ترك الكتاب والسنة وأخذ بالكلام » (٤) ، وقوله كذلك : « لو رأيت صاحب بدعة يثني على الهواء ما قبلته » (٥) .

ومع ذلك فهو يعمل بالقياس والاستدلال وتفريع المسائل من أصولها ، وعندما لا يجد النص القرآني أو النبوي وقد مر بنا عند الحديث عن أصوله أخذه بالاجماع وآثار الصحابة التي لم يختلفوا فيها ، ونحوه ما قرب من الكتاب والسنة أو رجحه القياس فيما اختلفوا فيه منها ، وعمله بالقياس .

وأغلب الظن أن استقرار الشافعي على هذا المنهج في دراساته قد تساقبت عليه مرحلتان ، إذ من المعروف أنه كان حتى عام مائة وأربعة وثلاثين يتبع مذهب الإمام مالك ، غير أنه لما اطلع على مباحث أهل الرأي في العراق ورجع على أصولها بصره في أحكام فقهه المدينة ، عدل من موقفه من أصول الطرفين ، واصطفاق من كل ما فيه له مقتنع وخيار ، ويمكن أن نعد ذلك مرحلة أول استمرار عليها حتى يجتهد إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة ، وهناك لم يصف إليها وإنما حثت بحراه في سيلها ، وقد أبان هو عن ذلك فقال : « إنما رجعت إلى أقوالي الجديدة أنني لما دخلت مصر بلنتي أن بالقرب قلنسوة من قلانس مالك يستنق بها النبيث ، فضحقت أن يتأدى الزمان ويستعد فيه ما اعتقد في المسيح ، فأظهرت خلافه ليلم

- ١ (صفة الصفوة ٢/١٤٦ . ٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/١٥٧ ، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٥ . ٣) انظر شذرات الذهب ٢/٩ . ٤) الانباء ٨٠ . ٥) طبقات الشعراء ١/٥١٢ .

الناس أنه إمام مجتهد يخطئ ويصيب (١)، وهذه مرحلة ثانية .

وتتبدى طرائق الشافعي في البحث الفقهي وأحكامه التي نفذ إليها في مصنفاته القيمة التي تجاوزت مائة وثلاثة عشر مؤلفاً (٢) في الفقه والحديث والتفسير والأدب... وقد ذكر ابن النديم منها ما ينيف على مائة وخمسة كتب (٣) قال فيها الجاحظ: «نظرت في كتب الشافعي فإذا هي در منظوم لم أر أحسن تأليفاً منه» (٤). ومما في أيدينا من هذه المؤلفات كتاب «الرسالة» الذي صنعه استجابة لسيد الرحمن بن المهدي الفقيه المراقي الذي «التبس من الإمام الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والاجماع والقياس وبيان النسخ والنسوخ ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي كتاب الرسالة وبشأ إليه» (٥). ومن المؤكد أن الإمام الشافعي قد رجح فيها بصره - على طائفة في تحكيك آثاره - وعدل فيها إلى أن استوت على هذا النحو الرائق المشجب، وقد قام الأستاذ القاضي أحمد محمد شاكر بتحقيقها في سفر ضخيم قال في مقدمته: «إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي فيها للكلام على حديث الواحد والحجة فيه، وإلى شروط صحة الحديث، وعدالة الرواة، ورد الخبر المرسل والمنقطع، إلى غير ذلك... أدق وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن التفقه في علوم الحديث يفهم أن ما كتب بعده إنما هو فروع منه وعالة عليه» (٦). وامل من الخير أن نقف بين يدي هذا الكتاب الرائد في أصول الفقه.

فهو يتبدى بخطبة أو مقدمة يحمده فيها الله تعالى ويشهد بنبوة محمد ﷺ الذي بُعث «والناس صنفان، أحدهما أهل كتاب يهدوا من أحكامه... وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به» (٧) وأزل عليه الكتاب نبياً لسكل شيء.

ثم ينتقل إلى أوّل فصوله ويسميه «باب كيف البيان؟» فيقول إن جماع ما أبان الله خلقه مما نبيهم به من وجوه. فمنها ما أبانه نصاً مثل «جمل فرائضه في

١ (عيون التواريخ حوادث سنة ٢٠٤ [٢] انظر تهذيب الأسماء واللغات ١/١٠٣ .
٢ انظر الفهرست ٢٩٥ [٤] تهذيب التهذيب ٢٩/٩ . ٥ (مرآة الجناد ١٨/٢
٦ مقدمة المحقق للرسالة من ١٣ . ٧ (الرسالة ٨ - ١٠ .

أن عليهم صلاة وزكاة وحجاً وصوماً وأنه حرم الفواحش... ومنها ما أحكم فرضه بكتابه ويشن كيف هو على لسان نبيته ﷺ مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها... ومنها ما سن رسول الله مما ليس لله سبحانه فيه نص حكيم، وقد فرض الله في كتابه طاعة نبيه... ومنها ما فرض الله جل ثناؤه على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرضه عليهم فإنه تبارك وتعالى يقول: «ولنبولشكم حتى تعلموا ما تقولون» والصابرين ونبول أخباركم» (١) ثم يعقد أبواباً يذكر فيها أمثلة على الوجوه السابقة، ويهد بها لتفصيله المتفيض لها فيما بعد.

ويشير الإمام الشافعي إلى أن ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس، ويقول إن في العلم وجهين: الاجماع والاختلاف.

ويتحدث عن جماع علم كتاب الله فيقول منه «العلم» بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب، والمعرفة بنسخ كتاب الله ومنسوخه، والقرآن في تنزيله، والأدب والإرشاد والإباحة، والمعرفة بالموضوع الذي وضع الله به نيته من الإبانة منه فيما أحكمتم فرضه في كتابه ويثبت على لسان نبيته وما أراد بجميع فرائضه ومن أراد: «أكل» خلقه أم بعضهم دون بعض؟ وما اقترض على الناس من طاعته والاتباع إلى أمره. ثم معرفة ما ضرب فيها من الأمثال للدلالة على طاعته المينة لاجتناب معصيته وترك التفتة عن الحظ والازدياد من نوافل الفضل» (٢).

ثم يأخذ في الكلام على أن القرآن إنما نزل بلسان العرب وأنه لا يستطيع إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سمة لسانهم وكثرة وجوهه وجهاً معانيه وتفرقها، ويتناول بعض خصائص العربية.

ويتحدث عما فرض الله في كتابه من اتباع سنة نبيه ويستشهد بآيات كثيرة مثل قوله تعالى: «فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول» (٣) وقوله سبحانه: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكثت فإنا نكث»

١ (سورة محمد ٣١ . ٢ (٢) ص ٤١ . ٣ (سورة النساء ٥٩ .

على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتبه أجراً عظيماً ، (١)
 وينتقل إلى «باب ما أبان الله خلقه من فرضه على رسوله اتباع ما أوحى إليه
 وما شهد له به من اتباع ما أمره به» (٢)

ويستمر بعد ذلك في «باب ابتداء الناسخ والنسوخ» (٣) نسخ الكتاب
 بالكتاب ، وأن السنة لا تكون ناسخة للكتاب ، وإنما هي تتبع آياته ، ومفسرة
 لمعاني ما أنزل المولى سبحانه جُزْأً ، وهذا يقصر السنة على نسخ السنة فقط .
 ويذكر الناسخ والنسوخ الذي يدل الكتاب على بعضه ، والسنة على بعضه ، ويجال
 الإجماع في هذا الشأن .

ثم تصاقب أبواب الفرائض التي أنزلها الله نصاً (٤) ، والفرائض المنصوصة التي
 سن رسول الله معها ، والفرض المنصوص الذي دل السنة على أنه إنما أراد الخاس ،
 والفرائض التي بيئت السنة كيفيتها .

ويبي ذلك «باب الملل في الأحاديث» فيستقصى على لسان قائل مجاوره أم ما
 قد ينار حول هذا الموضوع من أسئلة . ثم يأخذ بالرد عليها في دقة ، فيبين أن
 السنة إما أن تنسخ على ما نص عليه الذكر الحكيم ، وإما أن تفصل جملة ، وإما
 أن تشرح ما ليس فيه نص كتاب ، وهذه ينفي العمل بها والسير على منوالها ، مثل
 التوهمين السابقين ، لأن الله قد فرض على عباده اتباع نبيهم ، أي أنها تنطلق مع
 مقاصد القرآن وأنها لا تنطق عن الهوى . ويتناول نسخ الحديث ومفسوخه ويجعل
 إلى ما قال فيه من قبل ، عندما تحدث عن الناسخ والنسوخ . ثم يبسط الكلام في
 الأحاديث المختلفة وينتهي إلى أن ليس ثمة حديثان مختلفان إلا ولهما «تخرج أو على
 أحدهما دلالة بموافقة لكتاب الله أو سنة أخرى أو بعض الدلائل .

ويتلو ذلك «باب العلم» فيقسمه قسمين : علم عامة لا يسع بالفاء غير منلوب
 على عقله جملة مثل معرفة أن الصلوات خمس وأن الله على الناس صوم رمضان
 وحج البيت لمن استطاع وإيتاء الزكاة وأن من الحرام الزنا والقتل والسرقة ونحوه

(١) سورة الفتح : ١٠ . (٢) ص ٨٥ وما بعدها . (٣) ص ١٠٦ وما بعدها .
 (٤) ص ١٤٧ وما بعدها .

وما كان في معنى هذا . وعلماً آخر يتناول فروع الفرائض وما يخص من الأحكام
 مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة ، الأمر الذي يجعل لقياس
 والتأويل فيها سبلاً هريضة ، وهذا علم إذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية فقط
 عن الآخرين ، ولو ضيغوه ممسأ خيفت ألا يخرج واحد منهم مطبق فيه من
 اللائم ، بل لا أشك . (١)

ثم ينتقل إلى «باب خبر الحجة» فيدافع عن خبر الحجة وهو «خبر الواحد
 عن الواحد حتى ينتهي به إلى النبي أو من انتهى به إليه من دونه» (٢) ، ويبين
 شروط تمديله لراوي هذا النمط من الحديث ، ويورد تسماً وعشرين حجة قاطعة
 تؤكد ثبوت أخبار الآحاد والعمل بها ، فضلاً عن صحيح فرعية في ثنائها .

ويبين بعد ذلك في «باب الإجماع» أن ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية
 عن رسول الله ، فسكوا قالوا ، لأن سنن رسول الله ﷺ قد تميزت عن بعضهم
 إلا أنها لا تميز عن عامتهم ، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله
 ولا على خطأ إن شاء الله ، (٣) . وروي حديث «... ألا فمن سره بمجتمعة»
 الجنة فليترجم الجماعة ، فإن الشيطان مع القدي ، وهو من الاتيين أتبعه . (٤)
 وإذن «من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم» ومن خالف ما تقول
 به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها ، وإنما تكون الثقة في
 الشريعة ، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة «خفة» عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس
 إن شاء الله . (٥)

ويتحدث عن «القياس» فيبين أن كل ما نزل بمسلم فلما أن يكون فيه
 بينه حكمكم ، وهنالك ينبنى اتباعه ، وإما أن يكون على سبيل الحنن فيه دلالة
 هادية ، وهي دلالة «تبلغ بالاجتهاد وهو القياس» . ويأتي القياس على وجهين ، أحدهما :
 أن يكون الشيء في معنى الأصل ، فلا يختلف القياس فيه ، وأن يكون
 له في الأصول أشباه فيلحق بأولاهما به وأكثرها شهاً فيه ، والقياسيون
 إنما يختلفون في الضرب الثاني . ثم يفيض القول مستديلاً على صحة الاجتهاد وجواز
 الخلاف فيه إذا اختلفت أسبابه أو لم يكن فيه إساطة في ظاهره وباطنه أي ليس فيه

(١) ص ٣٦٦ . (٢) ص ٣٦٩ . (٣) ص ٤٧٢ .
 (٤) ص ٤٧٤ . (٥) ص ٤٧٦ .

نص: عز آتي لو توي صحيح...
 - ويبطل الشافعي والاستحسان، بنير قياس، لأن معرفة الحكم لا تتم إلا بدلائل، والدلائل هي القياس، ويفصل شروط المجتهد وما ينبغي أن يأخذ نفسه من علوم وأسباب قوى، ثم يمرض مجموعة كبيرة من الأمثلة التطبيقية على القياس.
 ويتكلم في باب الاختلاف، بعد ذلك على نوعيه، الحرم الذي لا يحل لمن حله اختلاف لمن فيه، وهو كل ما أقام الله به الحجية في كتابه أو على لسان نبيه بنص صريح، والثاني ما كان يحتمل التأويل ويذكر قياساً.
 ثم يحدد موقفه من أقوال الصحابة إذا اختلفوا فيقول: ونصير إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الاجماع أو كان أصح في القياس (١). ويحتم كتابه بالمفاضلة بين أصول الفقه الأربعة الكبرى، فيجعلها على هذا النحو: الكتاب والسنة ثم الاجماع ثم القياس.
 ويكثر في الرسالة على نحو واضح أسلوبها الحوارية، فهو دائماً يتكر أسئلة على لسان مناظره (٢)، ويشققها ويفرغها، ثم يرد عليها في استقصاء بالغ وإحاطة شاملة، نافذاً من هذه الأحكام الجزئية إلى قانون كلي جامع لها (٣). وكثيراً ما يحتاج الشافعي باللغة والأشعار (٤)، ويطلق على النصوص التي يوردها ابتناءً إيضاحاً وتأكيدياً ما استدلل بها عليه (٥)، ويتحرى في كل ذلك الأمانة المداقة الراشدة (٦).
 وتمضي الرسالة في أسلوب حسن قوي متدقق واضح مؤثر للبيان بأدق معانيه مجانباً للتكلف تحكيمياً للتقسيم، ولا بأس أن تتأمل هذا الحوار بينه وبين

(١) ص ٥٩٧. (٢) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٣٦ و ٣٥٧ و ٣٧٢ و ٢٨٧ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣. (٣) انظر ص ٣٦٦ إذ يقول بعد حديثه من علم الخاصة وأنه فرض كفاية، وأن مثله التفقه في الدين، قياساً على أساسه التي دعاها علم عامة... يقول: وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصوداً به قصد الكتابة لها يتوب، فإذا قام به من السليين من فيه الكفاية خرج من تحلف منهم من اللأثم، ولو ضيعوه معاً نخت الأخرج واحد منهم مطبق فيه من اللأثم بل لا أشك إن شاء الله. (٤) انظر ص ٩١ و ١٣٥. (٥) انظر ص ٢٠١ وما بعدها، و ٥٠٢. (٦) انظر ص ١٠٥، إذ يصرح بسماحه الحديث موصولاً، دون أن يذكر من وصله، وانظر ص ٤٣١.

مناظره وهو يتناول الحديث عن الاجتهاد، قال الشافعي: ولا يكون الاجتهاد أبداً إلا على طلب عيّن قائمة بنهيّة بدلالة، وأنه قد يسع الاختلاف من له الاجتهاد... فقال (الذي بناظره): فكيف الاجتهاد:
 فقلت: إن الله جل ثناؤه من على السداد بقول، فدلهم بها على الفرق بين المختلف، وهداهم السبيل إلى الحق نصاً ودلالة.
 قال: فتبين من ذلك شيئاً.
 قلت: نصب لهم البيت الحرام، وأمرهم بالتوجه إليه إذا رأوه، وتأخيته إذا غابوا عنه، وخلق لهم سماً وأرساً وشمساً وقرراً ونجوماً وبحاراً وجبالاً ورياحاً... فقال: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهدوا بها في ظلمات البر والبحر (١).
 وقال: «وعلامات والنجوم م يهدون» (٢) فأخبر أنهم يهدون بالنجوم والعلامات، فكانوا يعرفون بميّه حبة البيت، بمعوتة لهم وتوفيقه إياهم، بأن قد رآه من رآه منهم في مكانه، وأخبر من رآه منهم من لم يره، وأبصر ما يهدى به إليه، من جبل يقصد قصده، أو نجم يؤتم به، وشمال وجنوب، وشمس يعرف مطليهاً ومغربها، وأن تكون من المصلي بالشعر، وبحور كذلك.
 وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من المقول التي ركبتها فيهم، ليقصدوا قصده التوجه للأمين التي فرض عليهم استقبالها.
 فإذا طلبوها مجتهدين بقولهم وعلمهم بالدلائل، بعد استماتة الله، والرغبة إليه في توفيقه، فقد أدوا ما عليهم.
 وأبان لهم أن فرضه عليهم التوجه شطر المسجد الحرام، والتوجه شطره (٣)، لا إجابة البيت بميته على كل حال.
 ولم يكن لهم - إذا كان لا تمكينهم الإحاطة في المواب إمكان من عابن البيت - أن يقولوا توجه حيث رأينا، بلا دلالة (٤).
 ومن الثابت أن الرسالة من كلام الشافعي نفسه، غير أن إملاءها على

(١) سورة الأحكام ٩٧. (٢) سورة النمل ١٨. (٣) أي لا يكون التوجه إلا إلى المسجد الحرام. (٤) ص ٥٠١ وما بعدها.

أصحابه جعلها لا تخلو من عبارة «قال الشافعي» (١) في بعض الأحيان، وهي عبارة ليست تدل - كما هو واضح - إلا على استئذانهم من لسانه، وتحريرهم أن يشينوا أنه هو - لا 'م' - أهل هذا الكتاب المسمى الجليل.

وتبدو الظاهرة الأخيرة أيضاً في المصدر الأساسي لدراسة فقه الإمام الشافعي وهو كتاب الأم الذي كتبه في المراق أولاً وعرف باسم كتاب الحجسة أو كتاب المبسوط، ثم نقح فيه في مصر، وهو من كلامه كما كانت الرسالة من كلامه، إلا أن فيه بعض التعليلات أو التنيهات التي أضافها الربيع بن سليمان المرادي المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) صاحب الشافعي وراوي كتبه، وهي تعليلات وتنيهات غير خافية ولا يمسب ميزها. وقد طبع هذا المنصف الضخم في مصر ملحقاً به كتاب الرسالة الذي استغرق الجزء الأول من أجزاءه السبعة، ومضافاً إلى هامشه كتاباً باسمند الشافعي وكتاب اختلاف الحديث له. وليس بعيداً أن تكون بعض أبحاث هذه المجموعة المطبوعة مما أثنه الشافعي مفضولاً عن هذا الكتاب، ثم جاء النسخ فضوهوا إليه، وذلك مثل كتاب اختلاف مالك والشافعي وكتاب سير الأوزاعي في الجزء السابع (٢). ويدور كتاب الأم حول فقه الإمام محمد بن إدريس والأحكام الفرعية التي أدى إليها اجتهاده، وفيه إلى ذلك بعض أصول الفقه، سوى الرسالة.

ويضم الجزء الأول منه كتاب الرسالة كما تقدم، ويبحث الجزء الثاني في الزكاة والصيام والاحتكاف والحج والضحايا والصيد والذبائح والأطعمة والذرة، ويبحث الجزء الثالث في البيوع والرهن والهبة واللقطة، ويدرس الجزء الرابع أحكام الفرائض والوصايا والجزية وقاتل أهل البني والريضة وأحوال الدين والنضال وقاتل المشركين ومسألة مال الحرب، وفيه أيضاً سير الواقدي، ويعرض الجزء الخامس لشؤون النكاح

(١) انظر ص ٢١٢ و ٣٥٧ و ٤٠٧. (٢) هذا وقد وم أبو طالب السكي من القدماء وزكي مبارك من المحدثين فظنوا أن الأم من مؤلفات البيهقي لا الشافعي، ولم يشبهوا إلى أن الإمام كان يملئ - في كثير من الأحيان - أملاء، وأن أصحابه كانوا يعيدون مثل عبارة قال الشافعي أو سألت الشافعي عن كذا فقال، لتلا يظن أحد أن فرغاً من الكتاب من تأليفهم، ولكي يؤكدوا أن ما يقول بعد تلك العبارة أن هو الامن كلامه المحض.. وانظر في إيضاح لجة الكتاب: الشافعي لأبي زهرة ١٦٠ وما بعدها، ومقدمة الرسالة لاسد محمد شاكر هاشم ٩ و ١٠.

والصدقات والشفار والنفقات والطلاق والامان، ويخوض الجزء السادس في جراح الصدق والحدود والاقضية، وزى في هامشه كتاب مسند الإمام الشافعي، ويتابع الجزء السابع أحكام الأفضية ثم ينتقل إلى ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى، واختلاف علي وعبدالله بن مسعود، واختلاف مالك والشافعي، ثم يستعرض النقح وجماع المم، وصفة نبي رسول الله ﷺ، وإبطال الاستحسان، وسير الأوزاعي، والفرعة والمسكوبة، وفي هامش هذا الجزء الأخير كتاب اختلاف الحديث للإمام الشافعي.

وأسلوب الشافعي في الأم، كما في الرسالة، مستمر متلاحق يستقضي الفيكر ويفصل المعاني دون تكلف ولا التواء، يقول في باب إبطال الاستحسان: وليس للحاكم أن يقبل، ولا للوالي أن يدع أحداً، ولا يفتني المفتي أن يفتي أحداً إلا متى يجمع أن يكون عالماً علم الكتاب، وعلم ناسخه ومنسوخه، وخامته وطامته، وأدبه، وعالماً بسنن رسول الله ﷺ، وأقوال أهل العلم قديماً وحديثاً، وعالماً بلسان العرب، عاقلاً يميز بين المشتبه، ويتعقل القياس، فإن عديم واحداً من هذه الخصال لم يجز له أن يقول قياساً، وكذلك لو كان عالماً بالأصول غير عاقل للقياس الذي هو الفرع، لم يجز أن يقال لرجل: قيس. وهو لا يقبل القياس، وإن كان عاقلاً للقياس وهو مضيق لم الأصول، أو نهي منها، لم يجز أن يقال له: قيس على ما لا تعلم، كما لا يجوز أن يقال: قس، لأجبي وصفت له، أجل كذا مجز بينك، وكذا عن إسارك، فإذا بليت كذا فانتقل متيامناً، وهو لا يصر ما قبله بجملة يميناً ويساراً، أو يقال سر بلاداً، ولم يسرها قط، ولم يأتها قط، وليس له فيها علم يعرفه، ولا يثبت له فيها قصد ستمت يتصنطه، لأنه يدبر فيها على غير مثال قوم... كما لا يقال لبشاء انظر قيمة الخياطة، ولا نحيطاط انظر قيمة اليباء (٣).

ومن مؤلفات الشافعي «كتاب الستين» في الحديث النبوي، وهو مروى عن صاحبه إسماعيل بن يحيى المرزي المتوفى سنة (٣٦٤ هـ)، وكثيرته النالية أحاديث مرفوعة إلى رسول الله ﷺ، وفيه إلى ذلك موقوفات للصحابة (٤) ومقاطيع يمثلها كلام الشافعي نفسه (٥)، وهو مرتب على أبواب الفقه، ومطبوع في المطبعة الشرقية (١) الام ٢٧٤/٧ ٢ انظر على سبيل المثال ص ٦ و ٣ انظر ص ٧١ و ٧٢ و ١٢٠

سنة (١٣١٥).

وقد جمع محمد بن جعفر النيسابوري التوفى سنة (٣٦٠ هـ) مسنداً للامام الشافعي يحتوي أحاديث رواها عن أبي الباس الاصم التوفى سنة (٣٤٦ هـ) عن الربيع بن سليمان المرادي عن الشافعي. إلا أن ابن جعفر لم يرتبها بحسب الأبواب ولا الشيوخ، ولذلك قام المحدث محمد طاهر الأيوبي السندي التوفى سنة (١٢٥٧ هـ)، وكان يقرئ الكتب الستة في المدينة المنورة، فرتبه على الأبواب الفقهية، وحذف ما كان مكرراً في لفظه أو معناه وسماه ترتيب مسند الإمام العظيم، وقد طبع في مطبعة السعادة بمصر.

ويشبه عمل ابن جعفر ما صنعه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري التوفى سنة (٤٥٨ هـ) إذ جمع أحكام القرآن المتفرقة في مصنفات الشافعي، وقال في ذلك: «رأيت من دلت الدلالة على صحة قوله - أبا عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلي بن عم محمد رسول الله ﷺ وعلى آله - قد أتى على بيان ما يجب علينا معرفته من أحكام القرآن، وكان ذلك مفرقاً في كتبه المصنفة في الأصول والأحكام، فيؤثره وجمته. . . واقتصرت في حكاية كلامه على ما يتبين منه المراد دون الاطناب، ونقلت من كلامه في أصول الفقه واستشهاده بالآيات التي احتاج إليها من الكتاب، على غاية الاختصار ما يليق بهذا الكتاب» (١). وقد طبع الكتاب مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة في جزئين.

وواضح أن أحكام القرآن هذا الذي جمعه البيهقي غير أحكام القرآن الذي ألفه الشافعي نفسه (٢)، والذي ضاع فيما ضاع من آثاره.

وعما ترك الامام الشافعي مجموعة من الأشعار مفرقة في بطون تراجمه من كتب الفقه والحديث والأدب والتراجم، وهي مجموعة تسلك في الشعر الديني الذي يهتف بالخير وينمي فوازع الإنسان الصالحة التسمية لتزداد وتقوى، في الآن الذي يدعو إلى مجاهدة ما فيه من ميول وأهواء ووظائف تقبي به - إن قولاً لها - إلى الانحدار والارتكاس والمهبط، ومن هنا كانت الحكمة أوّل أغراض الشافعي في قريضه.

(١) أحكام القرآن ١/١٩٠.

(٢) انظر هدية العارفين ١/٩٢.

رتدور حكمته حول التأمل المتفكر وما يكون وراءه من اعتبار بالتجارب المرعبة وما يستخلص منها من أمثال قاطعة وقواعد هادية، وما يدفع ذلك إليه من زهد ونصائح وأخلاق.

فهو يتصوّر في معاده المحتوم هل هو جنة حنية أو نار متلظية؟ فإن من يدري حول ذلك اليوم ليذرف الدمع ولو الدمع، بل يبكي الدم بدل الدمع، ويقطع الليل تفكيراً وذكرًا، ويقلّ الكلام فيما سوى ذلك الذكر:

فيا ليت شعري، هل أصير لجنة فأهنا، وإما للسمير فأندما
فله در العارف التذّب إنّه نسح لفرط الوجْد أجفائه دما
يقيم إذا ما الليل جنّ ظلامه على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحا إذا ما كان في ذكر ربه وفيما سواه في الوري كان معجبا (١)

فذلك المصير هو السبب الرهيب، وهو ما يخاف ما لوف التذائد في هذه الغاية خلافاً كبيراً، فإن دي - مها كانت - زائلة قصيرة، وإن أيامها لآنية على كل نعيم فيها وكل سنك وجائمة:

عواقب مكرهه الأمور جباراً وأيام شرّ لا تدوم قصاراً
وليس ياقر يؤسها ونيمها إذا كرّ ليل ثم كرّ نهار (٢)

فكم من طاع في هذه الحياة قد أسرف في بنيه ثم انكس فجأة وأحاطت به همومٌ فقال ومصائب فادحة، فكانت هذه بتلك جزاءً مقطوعاً ونواباً، يبرجز:

تحكموا فاستطالوا في تحكّمهم عما قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا، لكن بنوا فبنى

عليهم الدهر بالأحزان والحزن

(١) نور الإحبار ٢٢٤، والروض النائق ١٦، ومعجم الأدباء ٣٠٢/١٧، والتذّب: النبيب.
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٨٢/٢، ومناقب الشافعي لرازي ١٩٩.

فأصبحوا ولسان الحال ينشدم هذا بذاك ولا عتب على الزمن^(١)
 وكان هذا التفكير الطويل يدفع الإمام الشافعي إلى البصر في تجارب الحياة
 الواسعة، واستشراف غيرها الواعية وقواعدها الحكيمة المصطنعة. ومن تلك العبر
 أن من غير الإصابت الراسدة أن يوهب الإنسان الخير ثم لا يتفقه في سبيل
 الله ليكسب ثواب مولاه وشكوره الناس، أو لا يقطف ثمار ما أوتيته من الحظ
 المجيب الذي يقرب المستبعد ويحل المصنات، ولا تسترب أن يورق بإس الميدان
 إذا أصاب محظوظاً، ولا تسترب أن يطير من يد المحروم ما كان يريد أن يبل به
 ظمأه، وما ذلك لفة حيلة المحروم ولا خفة عقله، بل لأن الإنسان إما أن ينال
 فكراً مبصراً أو غنى باذخاً، ولكنها ليسا يجتمعا معاً في يده، وهذا ما يدعو
 أولي الأحلام والعزائم أن يتمشوا لو أن لهم على نعمهم العقلية وخصائصهم المعنوية
 سعة في المال، وهذا ما يدعو أيضاً إلى الإيمان بالقضاء الحق المبين:

إن الذي رزق اليسار ولم يصب حمداً ولا أجراً لغير موفق
 فالجد يذني كل أمر شامع والجد يفتح كل باب مفتاح
 وإذا سمعت بأن مجدوداً حوى عوداً فأتمر في يديه فحقق
 وإذا سمعت بأن محروماً أتى ماءً ليشره ففاض فصدق
 لو أن بالحيل النسي لوجدتني بنجوم أرجاء السماء تعلقني
 لكن من رزق الحجا حرم النسي صدان مفترقان أي تفرق
 وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همّة يبلى بعيش ضيق
 ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق^(٢)

(١) الكشكول ١/٣٢٢. (٢) شفرات الذهب ١١/٢، وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٦٢
 والعمدة ١/١٨، وازمة المجلس ٢/٢٠٩، وحاسة الطرف ١/١٠٨، وكونه: حدوته أو وجوده.
 وقد نسب البيت الخامس «لو أن بالحيل...» لابي الأشرف. انظر طبقات الشافعية للسبكي ١/١٦٢.

وعلى نحو هذه الخواطر التي تصري المرء في بعض الأحيان يؤكد الشافعي أن
 أحداً لا ينال حكمة ولا يجوز معرفة إذا كان يفني عمره وهو يسمي وراء القوت
 وسد رمق عيلته، أو كان مشغول الفكر مرهقاً بالهدوم، وإن لقين الحكيم الدافع
 المصير لو كان ابتلي بالفقر والتقل بالأهل والولد لما أوتي شيئاً مما أوتي، ولما قدر
 أن يميز العين من البقل:

لا يدرك الحكمة من عمره يكدح في مصلحة الأهل
 ولا ينال العلم إلا فتى خال من الأفكار والشغل
 لو أن لقمان الحكيم الذي سارت به الركبان بالفضل
 بلبي بقتل وعياله لما فرق بين التبين والبقل^(١)
 ومن القواعد التي اجتنابها الإمام الشافعي إلا بلغت إلى سفه الحق ولا خصام
 الجاهلين، وبذلك يقمع الشر عنه وبصوت مرضه:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم
 إن الجواب لباب الشر مفتاح
 فالصمت عن أحمق أو جاهل كرم
 وفيه أيضاً لصوت العريض إصلاح^(٢)

وقد يسلك مع هؤلاء - لانتقاء منهم - طريقة غريبة، فيأشبههم على حقيقتهم
 حتى يظن منهم، وما هو منهم، وإنه لما قيل لهم لو كانوا يقولون:

وأترني طول النوى دار غريبة يجاورني من ليس مثلي يشاكله
 أحامقه حتى يقال مسجبة ولو كان ذا عقل لكنت أمافله^(٣)

(١) الكشكول ١/٣٠٣. (٢) نتيجة الأفكار ٧. (٣) طبقات السبكي ١/٦٢٢
 والنازل والبار لأسامة بن منقذ (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية من ٣٣٢) وشرح القامات للبرقي
 ١٣٩/٢، وحلية الأولياء ١/١٥٢. وقد ذكر البيت الأول ابن عبد البر وقال إنه نقل به، انظر
 بهجة المجالس ١/٢٣٤.

إن إفاضة العلم على أمثال أولئك تقرب به وإحاطة له ، لأن غراسه لا تنمر
 في زرعهم أبداً ، وما أشبه من يذخر علمه فيهم عن بيني السيارة ثم يهدمها بيديه :
 فَن حَوَى السِّلْمُ ثُمَّ أودعهُ بِجَهْلِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ ظَلَمَةٌ
 وكان كالمبني البناء إذا تم له ما أراد هدمه^(١)
 حقاً إن العلماء والسفهاء لعل طرفي تقيض ، فهؤلاء لا يقيمون لعارف وزناً
 ولا يقدرّون له علماً ، بل يلجئون في مخالفة مقالاته ما استطاعوا ، وهو من جانبه
 يسأم عشرتهم ، ويتجنب مجالسهم ، ولا يحظهم من فئته أي ميئل أو تبجيل :
 ومنزلةُ السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
 فهذا زاهدٌ في قرب هذا وهذا فيه أزهده منه فيه
 إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه^(٢)

ومن القواعد التي استخلصها الشافعي أن أحداً لا يسلم من أسنة الناس ،
 أو سفهاء الناس ، حتى المصطفى ﷺ ، إن هؤلاء إذا رأوك صامتا رموك بالكمة ،
 وإذا وجدوك فصيحاً اتهموك بالثرثرة ، وإذا الفتوك صائم نهار قائم ليل فذفوك
 بالرياء ، فاضرب عن أقوال أولئك صفحاً ولا تلتفت إليهم أي التفاتة ، ولا تخش
 إلا الله عز وجل وحده :

وما أحدٌ [من] أسن الناس سالماً ولو [أنه] ذاك النبي المطهر
 فإن كان سكيناً يقولون أبكم وإن كان منطيقاً يقولون أهدر
 وإن كان صواماً وبالليل قائماً يقولون زراق برائي ويمكر
 فلا تخش إلا الله جل جلاله^(٣)

(١) طبقات السبكي ١/١٥٩ ، وهدية الأمم ٣٦ . (٢) أدب الدنيا والدين ٣ ، وهدية
 الأمم ٥٩ ، ومنتاب الشافعي للبيهقي ٢/٩٧ ، وتنطع : بالغ . (٣) نتيجة الإنكار ٥٥ ، وفي
 المخطوطة وما أسد من ، ، ولولا أن ، ، وقد وجد العجمي - مصنف النتيجة - الشارح الثاني =

وبما كان يعاملهم به الامام الحكيم في بعض الأحيان أن يستقبل ترهاتهم -
 على مرارتها - بوجه بش ، وكأنها مدعاة جوار لا أحزان ، كل ذلك بجانب للفر
 وحسناً لأسبابه :

لقد أسمع القول الذي كاد كلنا تذكّره النفس قلبي يصدع
 وأبدي لمن أبداه مني بشاشة كأي مسرور بما منه أسمع
 وما ذاك من عجب به غير أنني أرى ترك بعض الشرّ للشرّ أقطع^(١)
 ومن حكيم الشافعي الخبارة أن الصديق من ينصر أخاه حين الشدة
 ويؤازره فيها :

صديقٌ ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو في القياس
 ولا يرجى الصديق بكل عصر ولا الإخوان إلا للتآسي^(٢)
 وكثيراً ما كانت تحول هذه القواعد الفكرية إلى ضرب من الأمثال السائرة
 والمعبر الجامعة ، ومن هذا الطراز أن من الشقاء أن يحب المرء من لا يحبه ، وأن
 يحرص هو على خيره ، بينما الآخر يبني ضرره :

ومن الشقاوة أن تحب - ومن تحب يحب غيرك
 أو أن تريد الخير للإنسان - وهو يريد ضررك^(٣)
 وهذا آخر يريد صادف أن ينفع ، فإذا به يضر :

رام نفعاً فضرراً من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقاً^(٤)
 وهذا طبيب يبالغ مرضاه وهو نفسه سقيم ، فكيف يكحل العيون من لا يبصر ؟

= من البيت الأخير موقوداً فأكله من عنده وأشار إلى ذلك . والمأذون : المأذون والزرع : الكذب
 وقد نسبت الأبيات في هدية الأمم ص ١٩٦ إلى ابن دريد مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(١) منتاب الشافعي للبيهقي ٢/٧٦ ، ومنتاب الشافعي للرازي ٢٠٢ .
 (٢) طبقات السبكي ١/١٥٩ (٣) ديوان الامام الشافعي ٣٥ (٤) وفيات الأعيان ٣/٨٣

جاء الطيبُ يجسني فجسته فاذا الطيب لما به من حال
وغدا يماجني بطول مقامه ومن العجائب أعمش كحال^(١)
ويبين الشافعي أن على طالب الهدى أن يكدر ويجهد وبداب، وإلا ماتمحق
له مطمح، ولا حاز من الهدى شيئاً :

بقدر الكد تكسبُ المآلي ومن طلب الملا سهر الليالي
ومن رام الملا من غير كدٍ أضع العمر في طلب المآل
تروم المزَّ ثم تنام ليلاً يفوض البحر من طلب اللآلي^(٢)
غير أن العمل - السبب - لا يكفي وحده، فإن ثمة توفيقاً وقدراً، وإن
العقاب - على قوته - بطعم الجيف النتنة، وإن الذباب - على قلة شأنه -
لينال أسمى ضروب السلا

أكل العقاب - بقوة - جيف الفلا

وجنى الذبابُ الشهد وهو ضعيف^(٣)
ومن هذا اللون من خلاصات الحكمة عند الشافعي أن الانسان هو القبيح
على أسراره، فإن هو أفضاها إلى أحد سواء كان ذلك ادعى إلى نشرها لا كتمها.
إذا المرء أفتى سيره لصديقه ودل عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سير نفسه
فصدر الذي أودعته السر أضيق^(٤)
ومن ذلك تصويره لحال الغريب عن أهله وبلده، فانه يظل في قلق ووحشة
واشتياق :

- ١ (مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٢٩٦، وإتحاف السادة المذنبين ١/٢١٠٠.
- ٢ (ديوان الامام الشافعي ٥٤، والاول في سرآة الجنان ٢/٢٦٦.
- ٣ (ديوان الامام الشافعي ٧٧. ٤ (شذرات الذهب ٢/١١٠.

إن الغريب له مخافة سارق وخضوع مديون وذلة وادق
وإذا تذكر أهله وبلاده ففؤاده كجناح طير خافق^(١)
كل ذلك كان يدفع الشافعي إلى زهادة عفيفة ونظرة مرفوعة تأني التهاك
على ابواب الحكام الذين إذا غضبوا بنتوا، وإذا لم يفضبوا إذا هم بسامون، فالامام
الحكيم يستغي بالله عن منيهم والترتف إليهم :

إن الملوك بلاه حينما حلكوا فلا يكن لك في ابوابهم ظيل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم مآثوا
فاستغن بالله عن ابوابهم كرماء إن الوقوف على ابوابهم ذل^(٢)
إن القلة الثدفة موت مورود وهلاك أمر مذاقه، لكن ذل الصراعة
ليس بأقل من ذلك إبلاها، ومن الخبر إشار الفناء مع شرف الكرامة من إهانة
النفس بذل السؤال :

لذل السؤال وهول المات كلاً وجدناه طعماً ويلا
فإن كان لا بد إحداهما فشيأ إلى الموت مشياً جميلاً^(٣)
إن الرضا بأيسر أكلة والكفاية بأقل شربة خير من شراهة الحرص أو
إراقة ماء الوجه على عتب اللسان :

أقسم بالله لرصخ النوى وشرب ماء القلب المالح
أحسن بالإنسان من حرصه ومن سؤال الأوجه الكالحة^(٤)
أجل، أن بطعم المرء خبز شعير مآدوما يلج محض، وأن يغرب في ارض

- ١ (مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٢، ومناقب الشافعي للرازي ٢٠٠، والواق : الهب.
- ٢ (نتيجة الأندكار ١١. ٣ (مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٦٥.
- ٤ (مناقب الشافعي للرازي ١٩٩، وروض النوى : كسره لاستخراج ما في قلبه من لئع
والقلب : جمع قلب وهو البز.

الله إلى أي مكان يكسب فيه رزقه، ويمون كرامته، خير له من أن يخفض رأسه لأحد إلا مولاة اللطيف الخبير:

صُنْ بِمَلْحِ الْجَرِيشِ خَيْرَ الشَّعِيرِ وَاعْتَقِبْ لِلنَّجَاةِ ظَهْرَ الْبَعِيرِ
وَجِبِ الْمَهْمَةَ الْمَخُوفَ إِلَى طَنْجَةٍ أَوْ خَلْفَهَا إِلَى الدُّرُودُورِ
وَصُنْ الْوَجْهَ أَنْ يَذَلَّ وَأَنْ يَخْضَعُ إِلَّا إِلَى اللطيفِ الْخَبِيرِ^(١)

وواضح من خطاب الشافعي أنه لا يفت عن الدنيا ومطامعها فحسب، بل أيضاً يدعو لذلك، وينصح به، بقول في موضع آخر:

لَا تَأْسَفِ الدُّنْيَا عَلَى فَائِتٍ وَعِنْدَكَ الْإِسْلَامُ وَالسَّافِيَةُ
إِنْ فَاتَ أَمْرَكَ تَسْمَى لَهُ فَفِيهِمَا مِنْ فَائِتٍ كَافِيَةٍ^(٢)

ويبدو تارة فائتة فيمظ بالزهادة واتقاء الشبهات ومجانبة الرءاء لا يبتغى وتطهير نيته في كل أمر فيقول:

مُعْتَدَةُ الْخَيْرِ عِنْدَنَا كَلِمَاتُ أَرْبَعٍ قَالَهُنَّ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ
اتَّقِ الْمَشْهَاتِ وَأَزْهَدْ وَدَعْ مَا لَيْسَ بِمَعْنِيكَ وَأَعْمَلْ بِبَيَّةِ^(٣)

ومما هدى إليه الشافعي ألا يبذل الإنسان مواعظه لمن لا يرغب فيها، ذلك أنه لن يُحمد عليها من جهة، ولن تنفع المنصوح الراتب عنها من جهة أخرى:

وَلَا تُعْطِينَ الرَّأْيَ مَنْ لَا يَرِيدُهُ فَلَأَنْتَ مَجْمُودٌ وَلَا الرَّأْيُ نَافِعُهُ^(٤)

ومن مواعظه لطلبة العلم أن يصبروا على ما قد يرونه من أسانذتهم من جفاء في بعض الأحيان، فإن ذلك الصبر - على حرارته - خير من البقاء في حماية الجهل طووال العمر، ويوصي الشافعي بالحرص على هذه الفضيلة منذ غضاضة الأعداء، ويبين:

(١) مناقب الشافعي البيهقي ٦٧/٢، والجريش: اللع الذي لم يطيب.
(٢) مناقب البيهقي ٦٦/٢، ومناقب الرازي ١٩٨، (٣) مامد التمهين ١٨٦/٤.
(٤) مناقب البيهقي ٩٧/٢.

أن العلم والتقوى هما الحياة لب الحياة:

تَصْبِرْ عَلَى حُرِّ الْجَفَا مِنْ مَعْلَمٍ فَأَنْ رَسُوبَ الْعِلْمِ فِي أَقْرَابِهِ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذَلِكَ التَّعْلَمِ سَاعَةً تَجْرَعُ ذَلِكَ الْجَهْلَ طُولَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمَ وَقْتَ شَبَابِهِ فَكَبُرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ
حَيَاةُ الْفَتَى - وَاللَّهُ - بِالْعِلْمِ وَالتَّقَى إِذَا لَمْ يَكُونَا لَا اِعْتِبَارَ لِدَانِهِ^(١)

والناظر في شعر الإمام الشافعي يجد إظهار العلم من محامد الأخلاق التي أخذ بها نفسه، ودعا إليها سواء، ذلك أنه مكرمه رافعة وخصة قافة، وهو وسيلة السعادة والفقه والاستبصار:

رَأَيْتَ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيمٌ وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاهُ لِنِثَامٍ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَعْظُمَ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ كِرَاعِي الْبَضَانِ تَتَّبِعُهُ السُّوَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتِ رِجَالٌ وَلَا أُحْرَفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ^(٢)

وتكثر دعوة الشافعي إلى هذا الخلق الممجد والتماسه، ذلك أنه يجلو عن القلوب ريتين الجهالة، وبين على فهم الدين، وراءة النفس من مذمة الجهد، والمهرم عليها، وينصح أبو عبد الله بزوم رواة العلم، ويبيد كما كان يُبدي أنه من أعظم منافع المعرفة أنها تهني الأنفس للرشاد واستيباب ما نزل به الوحي:

مَعَ الْعِلْمِ فَاسْلُكْ حَيْثَمَا سَلَكَ الْعَلِيمُ وَعَنْهُ فَسَائِلٌ كُلٌّ مِمَّنْ عِنْدَهُ فَهَيْمٌ
فَفِيهِ جَلَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى

وَعَوَّنْ عَلَى الدِّينِ الَّذِي أَمْرُهُ حَتْمٌ
فَأَنْتَ رَأَيْتَ الْجَهْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ وَذُو الْعِلْمِ فِي الْأَقْوَامِ يَرْفَعُهُ الْعِلْمُ

(١) ديوان الإمام الشافعي ٢١. (٢) المصدر السابق ٥٧.

فأي رجاء في امرئ شاب رأسه وأفنى شباباً وهو مستعجم فدم؟
 وهل أبصرت عينك أفتح منظرًا من الشيب لا علم لديه ولا حلم
 وخالط رواة العلم واصحب خيارهم فصحبهم نفع وخالطهم غنم
 ولا تعدون عينك عنهم فأنتم نجوم هدى ما مثلهم في الوري نجم
 فوالله لولا العلم ما فصح الهدى ولا لاح من غيب السماء لنا رسم (١)
 ومن الأخلاق التي أهل من شأنها إلى أبرد غاية حب السخاء، فهو يتلف
 على مال يجود به على المسرين من ذوي المروءة، لكيلا يتألم إذا التمسوا فوالله
 فاعتذر لفة ذات يده:

يا لطف نفسي على مال أفرقه على المقلتين من أهل المروءات
 إن احتذاري لك من جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات (٢)
 ويدعو كثر المال أن ينفعه على نفسه ليتنعم، وعلى غيره ليحسب الأجر،
 وبذلك لا يكون كمن لا يسخر إلا إبان الشروع حيث لا يجديه الوهب كثيراً:
 يا جامع المال ترجو أن تعوز به كل ما أكلت وقدم للسوازين
 ولا تكن كالذي قد قال إذ حضرت

وفاته: ثلث مالي للمساكين (٣)
 ومن حامد الأخلاق في شمر الشافعي فضيلة المغف، فهو بصفح عن وقع في
 الليل منه، من أجل ألا يردي أحد من أمة محمد ﷺ في سبيل وزير منوط به
 يوم الحساب:

(١) نتيجة الأستكار ٣، وفدم: قليل فهم.
 (٢) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٣، ونور الأبحار ٢١٤، وطبقات السبكي ١٥٩/١، ورواهما
 ابن عبد البر في هبة المجالس ٤٨٦/١ للشافعي ولكنه أشار إلى أنه قد قيل أعاقتل بيما.
 (٣) نتيجة الأستكار ٤.

من نال مني أو عقلت بذمتي أرائتة لله شاكر ميثية
 أرى معوق مؤمن يوم الجزا أو أن أسوء محمداً في أمته؟ (١)
 إن خيراً من مؤاخذه هؤلاء المؤمنين أن يلتفت كل إلى نفسه لتزداد تقوى
 إلى تقواها، فيكون مثله في ذلك مثل السقيم الذي تلبه آلامه عن أسقام سواء:
 والمرء إن كان عاقلاً ورعاً يشغله عن عيوبهم ورعة
 كما العليل السقيم يشغله عن وجع الناس كلهم وجمعه (٢)
 هكذا سبيل التقوى، خلت صفوح، وإحسان وضيء، وهوران لكل سبحة:
 فدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التي ارتكابها
 وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها (٣)
 ومع الحكمة - أكبر أغراض الشافعي في قريضه - كان له شمر في الصداقة
 والفخر والمدح والمجاء. وبما احتفظت له المصادر في الصداقة بينان كتبها إلى محمد
 ابن الحسن لما انشهم بمالته على الرشيد، يقول:
 لست أدري ما حيلتي غير أني أرنجي من جميل جاهك صنفا
 والفتى إن أراد نفع صديق

فهو يدري في أمره كيف يستعي؟ (٤)
 وأما أعانه على إثبات برادته وفسح له في مكتبته حتى ينسخ أئمة كتب الأحناف
 لذلك المهدي، حدث أن تأخر في إحدى المرات عن تسجيل إعارته له بمض المصنفات
 فأنفذ الشافعي إليه:

قل للذي لم تر عينا - من رآه مثله
 (١) شذرات الذهب ١١/٢. (٢) مناقب الشافعي لليهي ٨٨/٢، وتوالي التأسيس ٧٥
 (٣) مختصر تذكرة القرطبي ١٦. (٤) مناقب الشافعي لليهي ٨٦/٢.

وَمَنْ كَانَ مَنْ رَأَهُ - قَدْ رَأَى مَنْ قَبْلَهُ

العلم ينهى أهله أن يمنوه أهله (١)

فبث إليه بطل المسنقات. ومن آثار الشافعي في هذا الشأن بيتان قالهما في محمد بن عبدالحكم. وكان من أحب إخوانه في مصر إليه، وكان قد اعتل:

مرض الحبيب فمدته فرضت من حذري عليه

فأتى الحبيب يمودني فبرأت من نظري إليه (٢)

ومن شعر أبي عبادة في الفخر بيتان يذكر فيها ما واه من العلم النافع الذي يصعب أينا حل، يقول:

علمي ممي حيثما يمتت بنفسي قلبي وواه له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه ممي

أو كنت في السوق كان العلم في السوق (٣)

وأيضاً يفتخر بآل البيت فيقول:

ياراكبا كيف بالحصب من ميني واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحبيب إلى ميني فيضاً ككثنتم الفرات الفاض

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي (٤)

وواضح أن الشافعي يبتز عن حبه - كأبي مسلم - لأهل البيت، إلا أن

(١) المحدثون من الشراء ١٣٨، وتهذيب الأسماء واللغات ١/١٨٢، وقد رواها له ابن

خلكان في وفياته ٣/٣٢٤، وقال: «ورأيت هذه الآيات في ديوان منصور بن اسماعيل

النفيعي المصري... وقد كتبها إلى أبي بكر بن قاسم». (٢) مناقب البيهقي ٢/٩٣.

(٣) أدب الدنيا والدين ٤٩. (٤) مجيب الأدباء ١٧/٣١٠، والنجوم الزاهرة ٢/١٢٧، والروافض ٢/١٧٨. والحصب: موضع رمي الجمار في منى، والحيف ناحية من منى.

هذا لا يجوز أحد أن يسلكه في الروافض (١) أو الشيعة (٢)، كما صنع بعض

الدارسين، فأقوالهم مردودة ولا يست تقوم على أي دليل، ذلك أن الشافعي لم يكن

يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر، فمئة المالين الرافضين، بل كان يقدرهما إلى

أبعد غاية ويقول: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان

ثم علي رضوان الله عليهم» (٣)، وكان يصحح إمامهم جميعاً (٤)، وكان كثير العطف

في الرافضية (٥)، وقد أثرت عنه آيات بيِّنة فدامة من إذا رآه يذكر عديداً

حشره مع أتباعه المالين فيه، ومن إذا ألفاه يمدح أبا بكر سلكه في الناصبية الذين

ينفضون الإمام أبا الحسن، وكل ذلك أحكام جائزة وأفهام ماثلة هو منها براء:

إذا نحن فضّلنا علياً فأولنا روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل

وقضّل أبي بكر إذا ما ذكرته رُميت بسُحب عند ذكري للفضل

فلازات ذا رفض ونصب كلاهما بحبهما حتى أوّسّد في الرمل (٦)

وأيضاً فإن من الواضح أن إمام المذهب الشافعي السني الكبير لم يكن شيعياً،

إلا أن أبا عبادته كان - كأبي - من أهل القيلة - يواد الشيعة ويحسن معاملتهم،

لأنهم - ببساطة - فرقة إسلامية موحدة تنتم بأركان الإسلام الحسنة، وتنصر

دعوته، وتمثل أخلاقاً، تماماً مثل أهل السنة، وما كان الخلاف القوي البصر بين

الطائفتين المؤمنتين ليحجب عن بصر الإمام الشافعي ما تلقيا في من أمهات القواعد

وكبريات القضايا الأساسية في التشريع الإسلامي، إضافة إلى إيمان الذي لا

تختلفان فيه إذا استبعدنا القلة من الشذوذ المالين - أي اختلاف.

وزيد ما تقدم وضوحاً أننا نجد الشافعي في مديحه يقدر الخلفاء الأربعة الراشدين جميعاً، فيقول:

شهدت بأن الله لا شيء غيره وأشهد أن البعث حق وأخلص

(١) انظر نقل الرازي لمقاتلهم ورفضه لها في مناقب الشافعي ٨٩ (٢) تبليغ اللقال ٢/٧٦.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٤٣٣. (٤) و (٥) مناقب الشافعي للرازي ٩٢.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧، ونور الأضياء ١١٥.

وَأَنْ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَبِّهِ وَكَانَ أَبُو حَفْصٍ عَلَى الْخَيْرِ بِمَحْرَصٍ
وَأَشْهَدُ رَبِّي أَنْ عُمَانَ فَاضِلٌ وَأَنْ عَلِيًّا فَضْلُهُ مُتَخَصِّصٌ
أُمَّةٌ قَوْمٌ يُهْتَدَى بِهِدَامُهُمْ لِحَا اللَّهِ مِنْ إِيَّامِهِمْ يَنْقُصُ
فَمَا لَمُتَاتٍ يَشْهَدُونَ سَفَاهَةً وَمَا لِسَفِيهِ لَا يُجِصُّ وَيَحْرَصُ؟^(١)

ومما بقي من أشعاره في المهجاء بيتان يحمل فيها على الفرطيين بالرأي الذين لا
يتحررون ما في قضاياهم من حديث نبوي، يقول:

لَمْ يَبْرَحِ النَّاسُ حَتَّى أَحْدَثُوا بَدْعًا فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ لَمْ يُبْعَثْ بِهَا الرَّسُلُ
حَتَّى اسْتَخَفَّ بِحَقِّ اللَّهِ أَكْثَرُهُمْ وَفِي الَّذِي حَمَلُوا مِنْ حَقِّهِ شَفْلُ^(٢)

وكذلك يحمل على أولي الأثره الذين أنطقهم الدرهم بعد طول سكوت فيقول:

وَأَنْطَقَتِ الدَّرَاهِمُ بَعْدَ صَمْتِ أَنْسَاءٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا سَكُوتًا
فَمَا عَطَفُوا عَلَى أَحَدٍ بِفَضْلِ وَلَا عَرَفُوا لِمَكْرَمَةِ بِيوتَا^(٣)

.....

ولعله انضج من الأمثلة الكثيرة المتقدمة من شعر الشافعي أنه شعر حسن
بصورة عامة، ويكاد دائماً يجوز فضيلة المعنى العريف والفكرة المفيدة، وتلك
إحدى المقومات الأساسية لكل فن ينضج لنفسه الإحراز والتقدير والسو، ولا
بأس أن أسوق الآن هذا النموذج مثلاً للبهات النالبة على قريبه، بقول في الفخر:

مَاذَا يُجْتَبَرُ ضَيْفُ بَيْتِكَ أَهْلُهُ إِنْ سِيلَ كَيْفَ مَعَادُهُ وَمَعَاجُهُ؟
أَقُولُ جَاوَزَتْ الْفِرَاتَ وَلَمْ أُنَلْ رِيئًا لَدَيْهِ وَقَدْ طَفَّتْ أَمْوَاجُهُ؟

(١) طبقات السبكي ١/١٥٦، و مناقب الشافعي للرازي ٨٧، و مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٦٨.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧١، و البداية والنهاية ١٠/٢٥٤.

(٣) حلية الأولياء ١/١٤١، و طبقات السبكي ١/٦٠.

ورقيتُ في درج العُلافتضايقتُ عما أريدُ شِبابه وفِجاجةُ ؟
ولتخبرنُ خِصاصتي بتَمَلُّقي والماءُ يُخْبِرُ عَنِ قِذَاهُ زَجَاجُهُ^(١)

فهو يمتنق القدرة على أسباب الكرم، وذلك منى سامر وأمنية وضيفة، وهو
- في إرادته على هذه الشاكلة - ليس بسطحي الطريقة داني المآخذ، وإن لم يكن في
الوقت نفسه سحيق النور بديع السلك، وداقماً لا بد في الشعر مع شرف مضاه
من طرائفه ودقته. وفي الأبيات حسرة عاطفية مؤثرة ورجاء صادق، وفيها تشبيه
الكرم بالفرات وتصور الأمواج الطافية والسلا الرفوع درجات درجات والسبل
التضايقة والخصاصة المخيرة والزجاج الحاكي، وهي صور بديعة وإن كان بعضها خافت
الروح. والبارات قوية والألفاظ جزلة والتدقيق عادي والتراكيب مألوفة.

إلا أن في شعر الشافعي في بعض الأحيان إبداعاً ظاهراً وجمالاً أليفاً،
يقول في تزية النفس واختيار الصديق:

صُنَّ النَّفْسَ وَأَحْمَلَهَا عَلَى مَا زِيَّهَا تَمِشُ سَالماً وَالْقَوْلُ فَيْكَ جَمِيلُ
وَلَا تُرِنَنَّ النَّاسَ إِلَّا تَجَمُّلاً نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَلِيلُ
وَلِإِنْ ضَاقَ رِزْقُ الْيَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ عَسَى تَكْتَابُ الدَّهْرُ عَنْكَ تَرْوِيلُ
وَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ أَحْرَى مَتَلَوْنِ إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالٌ حَيْثُ تَمِيلُ^(٢)

فما فيه فاضلة تقوم النفس وتخلق بها في آفاق عالية سبينة، وتنجو بها من
مصاحبة اللذات المقيت، وتزدان الأبيات بصورة النفس المحمولة على ما يزين ويرقي،
وتتجسم الصائب والأرزاق، وكشف الألوان المتقلبة لدى الوجه-ين أو الوجوه،
وميلانه مع الريح التي يحملها الإمام الشافعي بما يميل، ويكفي بها عن الظروف
والأحوال. والألفاظ رقيقة، والتراكيب محكمة، والسياق مناسب، والقافية تتماشى
معه في اتفاق والسجم. ويقول:

(١) نزهة المجلس ٢/٢١٠، ووفيات الأعيان ٣/٣٠٨، و معاجه: مقامه.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٦، و مناقب الشافعي للرازي ٥٢٥، وروى المرثبي عن
الريبع بن سليمان أنه ألفه الأبيات اشداً ١، انظر مرجح للطعامت ٢/١٣٩.

الناسُ بالناس ما دام الحياة بهم والسعد لا شك تارات وهباتُ
وأفضل الناس ما بين الوري رجل تقضى على يده للناس حاجاتُ
لا تمنن يد المعروف عن أحد ما دمت مقتدرًا فالسعد تارات
واشكر فضائل صنع الله إذ جعلتُ إليك لا لك عند الناس حاجاتُ
قدمت قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات^(١)

وبلفت في النص أن "لا شك" عبارة غير مألوفة في ميدان الشعر، إلا أنها قد جاءت هنا حسنة الموقع منبججة مع السياق، وكذلك العطف بـ"ولا"، ابتداءً فصر المعنى على ما سبقها من عوائد النثر لا الشعر، لكن قصرها في البيت الرابع لتذكير المخاطب بما أوتيته من فضائل صنع الله، وانسجامها لا نفورها مع تراكيب البيت، ذلك جئها أن تكون ناشزة أو غريبة. وبلغتنا أيضاً تجسيم السيد فهو هيباً هوباً، وتجسيم المعروف فما هي ذي يده، وتشخيص المكارم فذلك هي حبيسة، وتصوير الأشعة فما هم أولاء مبتون على الرغم من أنهم يحسبون على الأحياء. وقد أحسنكم الروي الهامس والناء، فكان مع القافية طائفة طيبة لا متكلثة ولا مقسورة، كما كان مناسباً للنصيحة الحكيمة التي تهمس ولا تشهر.

وانظر تقاسيمه الموسيقية التابعة التندفة التي تلائم سرعة الجيوب ومجلة الاعتنام وتوالي الخفقان في قوله:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فمقبى كل خافقة سكون
ولا تنفل عن الإحسان فيها فلا تدري السكون متى يكون؟^(٢)
وانظر السياق المنسجم السلس المتلاحق في قوله:

نصيب زماننا والميب فينا وما لزماننا عيب سوانا
وقد نهجو الزمان بنير جرم ولو نطق الزمان به هجانا

(١) النهج الأحد ٧١/١ . (٢) مناب الناصبي لرازي ٢٠٥ .

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً هجاناً^(١)
وانظر هذه التقاسيم المعنوية المفصلة:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ، فكلك هورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مماًياً [فدعها وقل] يا عين للناس عين
وماشر بمروف وسامح من اهتدى

وفارق ولكن بالتي هي أحسن^(٢)

وال جانب هذه الأثلة من الإبداع الفني الذي يفوق مألوف شعره كان فحة مواضع أخرى يهبط فيه قريضه عن هذا المألوف، فراه نجد فيه زعة نثرية خالية من النبض الشامي الحمي على جلال ممانها فيقول:

فساد كبير عالم منتهك وأكبر منه جاهل متفك
هما فتنة في السالمين عظيمة لمن بهما في دينه يتمك^(٣)
وسرعة ينجح إلى مرض فضايقية محدودة، ثم يمين أحياناً فيها حتى تشبه الألتاز، ويروي أن رجلاً جاء إليه برقة مكتوب فيها:

رجل مات وخلف رجلاً ابن عم ابن أخي عم أبيه
فأجاب الشافي في الحال:

صار مال المتوفى كاملاً باجماع القول لا صرية فيه

(١) مناب الناصبي للبيهي ٨١/٧، وانظر البيهين الأولين في المحدثون من الشعراء ١٤٠. وقد نسبت الأبيات في مجسم الأدباء ٧/١٩ إلى أبي الحسن محمد بن محمد المعروف بأبي لسكك البصري، مع اختلاف في رواية الأبيات. (٢) تقييد الانسكرو ١٢، وما بين الطرفين في المخطوطة هكذا: (فلها)، والأبيات في غرر الحقائق ١٠١ دون نسبة.

(٣) ديوان الأمام الناصبي ٥١، وما في مفتاح السعادة ٣٧/١، دون نسبة.

للذي أخبرت عنه إنه ابن عم ابن أخي عم أبيه (١)
والرجل الوارث هو والد التوفى، والقصة تدل على ذكاء الشافعي رحمه
الله وسرعة بديته، ولعل من الواضح أنه قد اضطر إلى هذا الفن اضطراراً،
ومن هنا ندر في شعره أشباهه.

على أن من المؤكد أن لأبي النسخ آثاراً واضحة في الطراز الأخير من
شعره، ذلك أن النقاد القدماء أبوا تقدمه في هذا الفن من القول، فذكر المبرد
أن الشافعي «كان من أشعر الناس» (٢)، وشهد ابن الهادي أنه كان «مع جلالته
قدره شاعراً مفلحاً مطبوعاً» (٣) وأبان أبو الفداء وعمر بن الورد أن أشعاره
فائقة (٤)، وأشار الياقيني - من ناحية أخرى - أن «له من الأشعار ما يخرج عن
حيز الانحصار» (٥)، مع أن ما في أيدينا منها لا يتجاوز خمسمائة بيت.

والمصادر الكثيرة المستفيضة التي روت مقطوعاته الشعرية وقصائده، والتي
ذكرت مجموعة منها في الهوامش المتقدمة، وافتخاره بمجازة هذه الموهبة الفنية (٦)،
وقوله: «الشعر كلام فحسنته حسن وقبحه قبيح» (٧)؛ كل ذلك يرجح أن ما
ينسب إليه من أن الشعر يزري باللسان (٨)، أو أنه «لا يكاد يجود شعر القرشيين،
لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» (٩) وأن قوله:
«لو كنت اليوم بمن يقول الشعر لرئيت المرودة» (١٠) إن هي إلا أحكام أصدرها أول
عمره ثم عدل عنها، أو هي خواطر نظرية قد خالفها من الوجهة العملية.

- ١ (مناقب الشافعي للرازي ٢٠٣ . ٢ مناقب الشافعي للبيهقي ٤٨/٢ .
٣ شذرات الذهب . ٤ تاريخ أبي الفداء ٢٩٢/٢ ، وتنمة المختصر ٢١٥/١ .
٥ سرآة الجنان ٢٦٦/٢ . ٦ انظر شعراً له في وفيات الاعيان ٣٠٧/٣ ، ونزهة
الجليس ٢١١/٢ . ٧ مناقب الشافعي للرازي ١٩٥ .
٨ انظر في نزهة الجليس ٢١١/٢ ، والنجوم الزاهرة ١٧٧/٢ قوله :
ولولا الشعر باللسان يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع في الوضي من كل لبيد وآل مهلب وأبي يزيد
٩ مناقب الشافعي للرازي ١٩٥ ، والآية من سورة يس ٦٩ . ١٠ نوالي التأسيس ٧٥ .

خاتمة

أردت في هذه الدراسة أن يتسع مجال الأدب فلا يقف عند الأعلام لا بتعدادهم، إذ لا يمكن لمؤلاء أن يصوتروا وحدهم خصائص الأدب العربي كلها جميعاً، فاخترت شعر الفقهاء، والتزمت في دراستهم المنى الاصطلاحي لكلمة فقه، وآثرت المنهج المتكامل، وحصرت الدراسة بما يقرب من قرنين من الزمن فصعب، وهي حقبة زاد فارضو الشعر فيها من الفقهاء على خمسين، وتجاوزت آثارهم التي في أدينا ثلاثة آلاف بيت.

وقد جمعت الدراسة في ثلاثة أبواب، تناولت في أولها موضوعات شعر الفقهاء وأفراضه، وكانت الحكمة أول هذه الأفراس، وبسلك تحت عنوان الحكمة ما قالوه من أشعار في الإيمان واليقينة، وهي أشعار تؤكد أن للناس إلهاً واحداً لا شريك له، خلق العباد، وأنزل عليهم الدين، ووجههم تبعاً غامرة من فضله الأوفر، وهو سبحانه خالد باق مالك الملك يعلم النيب والصدقة. وقد كتب على نفسه الرحمة والعلف والإنعام... وكريم الصفات، وجعل لعباده حياة ثانية أخرى وهي حياة يتندى منذ موارة الميت في قبره، إذ فيه يدوق - إن كان آثماً - دفعات العقاب الأولى، وعندما يجيئ الحشر يمثل كل ابن أثمى بين يدي الله في موقف رهيب راثع، فيثيبه، بحسب عمله، نعيماً أو جحيماً.

وعلى هدى حقيقة الإيمان مضى الشعراء الفقهاء يطيلون التأمل والتفكير في الحياة والانسان والكون، فليست هذه الحياة إلا سرايباً وغروراً، ينتفخ ابن آدم فيها وينتفخ، ويضيق عنه أنها سريسة المضاء، محتومة النهاية، وهو يشيع كل يوم قريباً من الزاحلين، ولكنه لا يستشعر أنه سوف يمضي كما يمضون مستسلماً لقضاء ربه القالب ونظامه الحكيم.

والانسان في شعر الفقهاء، مخلوق أبعده الله وأنهبه، منذ كان في ظلم اللذرة، إنما هو عبد لمولاه، وقد كتب عليه قصر العمر، وناط به المسؤولية وهو - خلال حياته - قد يرتكس، إلا أن يمكنه النهوض والاستقامة من جديد ودائماً يتفعل

عليه رخاء وشدة وقوة وفبول، وليس له من الأمر من شيء، إن هو إلا قضاء واقع وقدر كالفذ.

وقد تأمل الشعراء الفقهاء دوران الزمن ونساق الأيام، وتفكروا في الكون وما فيه من ليل ونهار وأرض وسماء، واستدلوا بها على الخالق الذي أبدعها، واعتدوا إلى أن تُمثِّلَ نظاماً شاملاً يهيمن على الكون وعلى الإنسان ويحكمها جميعاً.

وقد نفذوا من وراء هذا التأمل المتبصر إلى غير كثيرة استخلصوها من الحياة الرحبة، وتجاربهم فيها، وصاغوها قواعد هادية وأمثلة واعظة.

وعلى طريق الحكمة دعوا دعوة واسعة إلى الزهادة في هذه الحياة الدنيا الفانية غير أنها زهادة تخالف ما تصوره جولدمسهر خلافاً كبيراً، إذ لم تكن غملاً ولا تواكلاً ولا انزلاً، وإنما كانت نظرة عفة تستعصي على إغراء الدنيا وفاتها، من دون أن تفقد أسباب الناس ولا استمهار الأرض. وإلى جانب هذه الدعوة السامية وعظ الشعراء الفقهاء مواعظ كثيرة أخرى تهدي إلى التقوى وذكر الله والفتنة به وطاعته، وتقديم نصائح صالحة أن تكون مناهج في التربية والتقويم. وأيضاً وعظوا بطائفة حسنة من الأخلاق السامية كالفضيلة وحب العلم والكرم والمعروف والوفاء، وحذروا من اتباع الهوى واللذات والكبر والحسد والفتنة والرياء وغير ذلك من مساوئ الأخلاق.

ثم يلي الحكمة النزل، وهو أمر قد يدعو إلى الاستغراب إذا لم يتنبه الدارسون إلى أن ثلثي غزل الفقهاء، أو ما يزيد على ثلثيه، لمروءة بن أذينة وحده، وتثلثك جملة ما لهم من هذا النثر في النزل بالزوجة، وتمد في الشعر المقيف، وتخلو من التنزل بالذكور خلواً تاماً.

ويتلو النزل الفخر، وأيضاً قد تحمّل ابن أذينة ثلثيه وحده، وكان فخر الشعراء الفقهاء على لوزين، جاهلي طرق فيه مروءة من دون سائرهم أبواب المصيبة الجاهلية، وإسلامي كان يمضي في سنوف ثلاثة، دار أولها حول قيم قديمة استمرت مترسّبة في الإسلام، وأشاد بأنها بمان حرفت من قديم لكنه خلع عليها زينة استنكر على حاله الأولى، لولا بقاء اسمه، واعتز ثلثها بمفاخر جديدة جده تاماً.

ويقب الشعر خمسة أغراض هي الوصف والتمثيل والمجاء والرهاء والمدح، ويتناول الوصف الطبيعة وما فيها من أطلال أحبة غادروها، ومن صحراء لا يبلغ مداها البصر، ومن صنوف حيوان تمر تلك الصحراء، ومن سحاب ومطر... ويتناول كذلك موضوعات متفرقات كوصف طريق مخوف، أو مدينة من المدن، أو شيب بنذر بالموت.

وطرق التناوب ما قد يحدث بين الأصدقاء من جفوة أو تنبر، وما قد يبدو في معاملتهم أو معاملة بعضهم من قسوة وفاء أو وقوع في الهفوات، وقد استنذوا بتناوبهم عن هجاء كثير.

وكان هجاءهم على ثلاثة ضروب: سياسي واجتماعي وخلقى، ويبدأ في النوع الأخير جملة ما تركوه في هذا الفرض من الشعر، وهم يهجون - في التناوب - هجاء مبانراً، غير أنهم قد يستخرون ممن يهجونهم سخرياً، وقد يرمضون بهم ترميضاً.

وكان الشعراء الفقهاء - كلنا تحفظ لهم الموت قريباً أو عزيزاً - رثوه وبكوه، سواء كان خليفة عادلاً، أم عائلاً جليلاً، أم أباً شقيقاً، أم أخاً ودوداً، وربما رثوا أنفسهم أو شيعتهم أو أصدقائهم، وفي كل ذلك يحملون الاعتبار نصيباً كبيراً.

وقد تنكبت مدائحهم المبالغة المكروهة، فلم تكند تمدو مديحة الرجل بنهر ما هو فيه، ومدحوا النبي ﷺ، وفريقاً من الخلفاء، وأهل السلم والتقوى، والقادة، والسادة الأشراف.

وانتقلت إلى الباب الثاني، قدرت شعر الفقهاء، بعد أن قدمت منه نماذج وافرة عند الحديث عن موضوعاته، دراسة فنية وتقنية، فثبت ما فيه من إبداع في رائق بأحاسيس العاطفية وصورة الشعرية وموسيقاه المولممة وتراكيبه المضحكة ومعانيه السامية، وكل ذلك يدفع الأحكام الشائكة بين المشتغلين بالأدب من أن قريض الفقهاء نظم لا شعر.

على أنه كان إلى جانب الإبداع الفني نظم حقاً، غير أنه لم يبلغ حتى نهاية العصر النبوي الأول مقدار ما بلغه شعر الإبداع، وهو يتجلى في النزعة العقلية وما أدت إليه من استعراض أشياء علمية، أو فيسخر مجردة كما يتجلى في البساطة وما تنزع إليه من الألفاظ السهلة والتراكيب البسيطة والآثار العامة والارتجال في بعض الأحيان.

ثم درست علائق شعر الفقهاء بالمجتمع الإسلامي من حوله، إذ الشعر - كغيره من مظاهر الحياة - يمتد إليها بأواصر شتى، ويصور منها ملامح ومسامح، وإن من واجب الشعراء الأذكياء أن يشمروا بأعمال الناس وآلامهم، وهمومهم وأشواقهم، وأن يجعلوا مواهبهم في بناء المجتمع لا إزكاسه، وإرقائه لا إركاسه، لكن ذلك لا يعني أن يلتزم الشعراء بقضايا المجتمع إلزاماً حافياً ليس ثمة فيه حرية ولا طلاقة ولا ذاتية متفردة. ومن هنا ينطوي الذين يريدون أن يتروم عن ذلك خطأً كبيراً. وترداد فداحة خطيئهم إذا حاولوا إقحام نظريات أجنبية غريبة في دراسة الأدب العربي القديم الذي كان يحيا في جواء تختلف اختلافاً تاماً عن جواء تلك النظريات التي نبتت فيها، وإن تربع الشعر وتاريخ الحضارة ليستكران ذلك الإقحام استنكاراً شديداً. والناظر في شعر الفقهاء يجد فيه تصوراً لجوانب شتى من المجتمع الإسلامي، ويجد فيه قائمة بأسماء طائفة من بلدانه، واشتاتاً من تضاريسه وطقسه ونباته وحيوانه وسكانه، وأطرافاً من العقيدة والمبادئ فيه، وميضار الإنسان الصالح، وحوادث سياسية، وشؤوناً فكرية، وجوانب عالية، وبعض عادات اجتماعية، وكل ذلك يشهد للمجتمع الإسلامي بغير ما شهد له به بعض الباحثين الماصرين من أنه كان في القرن الثاني مجتمع شك وفسق، أو أن علماء الحجاز كانوا يقفون دروسهم لسباع الفناء والموسيقا، أو أن الأدب العربي كان أدب بلاط. وكلها أقوال قد اثبتت بالشرف في تميمها، أو بالتفريط في استجلاد ملاح ذلك العصر، أو بإصدار الأحكام هكذا دون بينة ولا برهان.

ثم حلوت أن اكشف مدى التزام شعر الفقهاء بالاسلام الذي أمضوا أعمارهم في دراسة علومه وتبيان أحكامه، فبينت موقف الاسلام من الالتزام، فقد طأطأ بأبناحه مسئولية شاملة لأفهامهم وأقوالهم وآثارهم ونواياهم، أو قل لحياتهم كلها، إلا أن رحابة ما هو حلال في الفريضة الإسلامية، وممكنة الاستثناء به عن أي محرّم، وكلية الأحكام وسمتها في كثير من الأحيان لمدة أوجه من الأعمال، ومباركة الدين لقوى الخير المسامية في الانسان، كل ذلك يجعل الالتزام بالاسلام يمتاز من الالتزام بغيره، ويثير مجال القول رجاً فسيحاً أمام الشعراء.

ولعل ذلك ما يفسر إعلاء شعر الفقهاء - في كل موضوعاته - للشعائر الدينية

والفكر الإسلامية، والتزامه بها على نحو يشبه أن يكون زهداً لمطاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولا يسكاه بلقى القارئ لهذا الشعر معنى واحداً يخرج على ذلك. اللهم إلا نحو ما كان لعروة بن أذينة من غزل حسي أو عصبية جاهلية.

واستعرضت في الباب الثالث حياة الشعراء استعراضاً تاريخياً فقد كان عصر الخلفاء الراشدين بداية أولى مهديت لنشأة شعر الفقهاء أو قل لاستوائه في مطلع العصر الأموي. وعن احتفظت لهم المصادر بقرص الخلفاء الأربعة وأبو الهرداء، إلا أنه قريض قليل، ويدخله مع ذلك - وضع كثير - ولا يمكن أن تمتد إليه الأيدي عالم تنزع من حوله أشواك الوضع والتزييف، ومن هنا جلت هذه الفترة عميماً أولاً للرحلة القادمة.

وما إن طوي عهد الخلفاء الراشدين سنة اربعين للهجرة حتى كانت الطلائع الأولى من أعلام الشعراء الفقهاء قد أخذوا يتوأمون إلى ساحة الفن، وبينما كان أوائلهم يدخلونها على استحياء كان الذين يلونهم يقتحمون الميدان بقوة وثقة، وكان كل منهم يحمل لواحد طابئين، أحدهما لواء الفقه والآخر لواء الشعر. ويمثل الأوائل الحسن بن علي وعقبة بن عامر والحسين السبط، ويمثل التاليين النعمان بن بشير وأبو الأسود الدؤلي. وكان يناصر هؤلاء الفقيه الصحابي عبدالله بن عباس، واستدرت قائمة الشعراء الفقهاء تلاحق تترى فكان من ركبائها القاضي شريح بن الحارث الكندي ونصر بن عاصم وإبراهيم النخعي وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وحمز بن عبدالمزني وعامر بن سراحيل الشعبي والحسن البصري وهون بن عبدالله ومحارب بن دثار وزيد ابن علي وابن شهاب الزهري وهروة بن أذينة وسابق البربري.

وأشهر هؤلاء النعمان بن بشير وأبو الأسود الدؤلي وابن عتبة وهروة بن أذينة وسابق البربري. والنعمان صحابي روى له مائة وأربعة عشر حديثاً، وكان ممن تأثروا لقتل عثمان رضي الله عنه، فقد حمل قميصه إلى معاوية في الشام، ومنذ ذلك الحين انعدت بينهما موالاة قوية. وقد ترك ديواناً من الشعر حققه له الدكتور يحيى الجبوري. وبدور شعره حول الحكمة والنزل والفض والوصف، ويبدو فيها تأثر واضح بالقرآن الكريم في معانيه وصوره وألفاظه. وعبارته النماذج تسهل وتسلم في الموضوعات الرقيقة، وتجزل وتقوى بل تنرب في الموضوعات الحماسية والتبديعية، وقد احتفظ

في قسم من قصائده يتهج القصبدة الجاهلية وهيكها الموروث ، وسلك في قسم آخر منها حديثاً ، وألّف بعض شعره مقطوعات مقطوعات .

وأبو الأسود هو غلام بن عمرو الدؤلي الكندي ، وكان قد أسلم في حياة النبي ﷺ ، ولكنه لم يره ، ولذلك عدّه في التابعين ، وأرسله عمر إلى البصرة مفتقياً للناس ومليّهم المريّة ، ثم اشتغل في عهد عليّ كاتباً لابن عباس فيها ، ثم ولاء قضاءها وإشرتها . ولما استخلف معاوية زرع عنه ذلك . وأم أشعاره في الحكمة والعتاب والمجاء والفخر والمدح . ويلحظ فيها وجهتان ، الأولى نظم يصف الكلام فيه رصفاً ، والثانية إبداع رائق فيه عواطف شامرة وتموير بأربع والنسيب رثوؤاً سليس ، وأنغام إيقاعية . وقد لمس النقاد القدماء ذلك أو بعض ذلك واستحسنوه . وكان ابن عتبة من فقهاء المدينة السبعة ، وكان شيخ عمر بن عبدالعزيز ، وقد حمي بصره في آخره من حياته ، وتروي المصادر أنه كان له زوجة تسمى عتمة ، فشب عليها في بعض الأمر فطلقها ، ثم نعم آخره ندامة ، وقال فيها مقطوعات تفيض لوعة واشتياقاً ، وشعر ابن عتبة من أحسن الشعر .

وكان مروان بن أدبته ، في أول أمره ، يصحب طيلاًب الفناء ولم يلبث أن حذق الموسيقى وألّف الألحان . وقد هام بفتنة كانت تسمى سعدى ، وأغلب الظن أنه خطبها - بعد شدة عذاب - واقترن بها ، ثم استقر بعد ذلك ينهل من الفقه وعلوم الدين ، ولعمرو ديوان يحوي سبائة بيت في الفزل والفخر والوصف والحكمة والرثاء والمجاء والمدح ، وأسلوبه الفني متاوج بين الجزالة الرصينة التي قد تبلغ الغموض والإغراب ، وهو ما ينلب على شعره ، وبين السهولة والسلاسة ، ومن دون ريب يمد في كلا أسلوبيه من فحول الشعراء .

وسابق البربري رقيي زاهد قد اختلف في اسمه وقومه ، والراجح أنه أبو سعيد سابق بن عبادة البربري من موالى بني أمية الذين حملوا إلى دمشق أيام الوليد . وتذكر له مجالسات لعمر بن عبدالعزيز ، وتذكر له أيضاً أشعار دينية في الحكمة . وقد يمكن أن يستدل بما يرى في بعضها من ضعف في أنه كان مغرباً حقاً ، على أن له مقطوعات أخرى قوية التأثير في القلب والنسب مما .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي الأول وجدنا أن شعر الفقهاء الموروث من

هذه الفترة لا يبلغ مقداره في العصر الإسلامي ، كما أن الشعراء لم يبلغ عددهم سابقهم ، وقد توالى على ميدان الشعر في هذه الفترة عبادة بن شبرمة والإمام أبو حنيفة وميسر بن كيدام وسفيان الثوري وحيثان بن هبلي وابن المبارك وعامر بن صالح وسفيان بن عيينة والشافعي وهارون بن عبادة الزهري وابن أبي دؤاد وأحمد بن المعتزل وأحمد بن حنبل ويحيى بن أكثم وعلي بن حجر السعدي ومحمد بن أبي القاسم وسوار بن عبادة المنبري والقاسم بن إبراهيم الرمي .

وأم هؤلاء ابن المبارك والشافعي ، وعبادة بن المبارك مروزي طوف بديار كثيرة طلباً للعلم ، وكان حافظاً محققاً من فقهاء الحديث ، وبفيض كتابه الزهد والجهاد من سنة رسول الله بزيارة ، وقد كان زاهداً إلى أبعد غاية ، ويمثل هذا الجانب فيه الزهد الإسلامي الإيجابي الذي لا يمنع بل يدفع دوماً إلى عمارة الأرض والسعي فيها ، من دون أن تكون الحياة فيها أكبر المموم ولا مطمع الآمال ، وقد انعكس كل ذلك في شعره وفي حياته .

والشافعي هو محمد بن إدريس القرشي الذي ولد في غزة ونشأ في أم القرى مكة المكرمة ، واستظهر القرآن وهو ابن سبع سنين ، وتبدى لتنهّل الفصاحة من منابعها المذبة الصافية ، وحفظ موطأ مالك ثم تلمذ له ، ورحل رسائل كثيرة إلى اليمن وبغداد ، ثم قرأ في مصر وتوفى بها ، وقد كان مذهبه وسطاً بين الأحناف والمالكية ، ويمكن معرفة هذا المذهب وأصوله من كتيب الرسالة والألم والنسب والسند وأحكام القرآن . وتستحوذ الحكمة على شعر الإمام الشافعي استحواداً ظاهراً ، وكان له - معها - أبيات في الصداقة والفخر والمدح والمجاء . وشعره في أغلب الأحيان حسن مألوف .



المصادر والمراجع

- ١ -

المصادر والمراجع القديمة

القرآن الكريم

.....

- إبراهيم بن علي الشيرازي : طبقات الفقهاء (بندااد ١٣٥٦ هـ) .
إبراهيم بن علي المصري (أبو اسحاق) : زهر الآداب وثمر الألباب ، بتحقيق محمد علي الجاوي (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٣ م) .
إبراهيم بن علي (بن فرحون) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (الطبعة الأولى ، مصر ١٣٢٩) .
أبو بكر بن علي بن حجة الخوي : ثمرات الأوراق فيما طالب من نواهد الأدب ورائ (الطبعة الأولى ، بالطبعة الخيرية) .
أحمد بن الحسين البيهقي : مناقب الشافعي . حققه أحمد صقر (القاهرة ١٣٩١ هـ) .
أحمد بن طاهر (ابن طيفور) : كتاب بندااد . حققه محمد زاهد الكوثري (مصر ١٣١٨ هـ) .
أحمد بن عبد الله الاسباني (أبو نعيم) : حلية الأولياء (بيروت ١٣٨٧ هـ) .
أحمد بن علي بن حجر المسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة (الطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ) . وتهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٦ هـ) .
ولسان الميزان (حيدر آباد ١٣٣١ هـ) .
أحمد بن علي (الخطيب البنداادي) : تاريخ بندااد (مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١ م) .
أحمد بن عمر المصنفي : مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (الطبعة الأولى في مطبعة الموسوعات ١٣٢٠) .
أحمد بن محمد حنبل : المسند . حققه أحمد محمد شاكر (دار المعارف بمصر ١٣٦٦ هـ) .

- ٣٨٤ -

- أحمد بن محمد (بن خلكان) : وفيات الأعيان . حققه محمد محي الدين عبد الحميد (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٣٦٨ هـ) .
أحمد بن محمد عبد ربه : المقدم الفريد . حققه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ) .
أحمد بن معطى (طائس كبرى زاده) : مفتاح السعادة . حققه كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور (دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٨ م) .
إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية (مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر بالرياض ١٩٦٦ م) .
بهاء الدين العاملي : الكشكول . حققه طاهر أحمد الزاوي (دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٣ م) .
تقي الدين النيزي : الطبقات السنية في تراجم الحنفية . حققه عبدالفتاح محمد الحلو (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ) .
الحسن بن رشيق القيرواني : الممددة (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ) .
الحسن بن عبد الله العسكري (أبو هلال) : ديوان الماني (مكتبة القدس بالقاهرة) .
الحسين بن المبارك الزبيدي : التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (بيروت) .
حسين بن محمد الديار بكري : تاريخ الخميس (مطبعة عهد عبدالرزاق ١٣٥٢ هـ) .
حسين بن محمد الراغب الاسباني : محاضرات الأديب (بيروت ١٩٦١) .
خليل بن أبيك الصعدي : الوافي بالوفيات (استانبول ١٩٤٩ م) ونكت العميان في نكت العميان (القاهرة ١٩١١ م) .
سديق بن علي القنوجي : التاج المكلل (الطبعة الهندية بمباي ١٣٨٣ هـ) .
ظالم بن عمرو الدؤلي (أبو الأسود) : ديوانه . حققه عبدالكريم الدجيلي (بندااد ١٩٥٤ م) .
العباس بن علي : زهرة الجلبس (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ) .
عبدالحفي بن الهادي الحنبلي : شذرات الذهب (مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ) .
عبد الرؤوف الناوي : الكواكب الدرورية (مصر ١٣٥٧ هـ) .
عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : بنية اوطاة . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٣٨٤ هـ) وتاريخ الخلفاء . حققه محمد محي الدين عبد الحميد (الطبعة

القصاه م ٢٥

- ٣٨٥ -

الرابطة بالقاهرة ١٣٨٩ هـ). والمزهر . حققه محمد جاد المولى ومحمد
أبو الفضل وعلي الجاوي (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة
١٣٧٨ هـ ، الطبعة الرابعة)

عبدالرحمن بن علي بن الجوزي : سيرة عمر بن عبدالعزيز بتحقيق عبد الرحمن الخطيب
(مصر ١٣٣١ هـ) . وصفة الصفوة (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ) .

عبدالرحمن بن محمد الرازي : الجرح والتعديل (حيدر آباد ١٣٦٠ هـ) .
عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمته (بولاق ١٣٢٠ هـ) .

عبدالرحيم بن الحسن الأنسوي : طبقات الشافعية . حققه عبدالله الجبوري (بغداد ١٣٩١ هـ)
عبدالله الميداني : اللباب (مصر ١٣٣١ هـ) .

عبدالقادر بن أحمد (ابن بدران) : تهذيب تاريخ ابن عساكر (دمشق ١٣٤٩) .
عبدالقادر بن عمر البغدادي : خزائن الأدب . حققه عبدالسلام هارون (دار الكتاب
بالقاهرة ١٣٨٧ هـ) .

عبدالقادر بن محمد القرشي : الجواهر المضية (حيدر آباد) .

عبدالله بن أسعد الياضي : مرآة الجنان (بيروت ١٣٩٠ هـ) .

عبدالله بن عبدالعزيز البكري : سخط اللآلئ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م)
عبدالله بن المبارك : كتاب الجهاد . حققه زبده حماد (بيروت ١٣٩١ هـ) . وكتاب الزهد
والرفائق . حققه حبيب عبدالله الأعظمي (طبعة بيروت) .

عبدالله بن محمد الببدالكاني : حماسة الظراف . حققه محمد الميبد (المراتز ١٩٧٣) .

عبدالله بن مسلم (ابن قتيبة) : الشعر والشعراء . حققه أحمد محمد شاكر (القاهرة ١٣٧٧ هـ)
والمعارف . حققه الدكتور ثروت عكاشة (دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م)

عبدالله بن المنز : طبقات الشعراء . حققه عبدالستار فرّاج (دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م)
عبدالله بن محمد الشامي : ثمار القلوب (مطبعة الظاهر بمصر) .

عبدالوهاب بن أحمد الشمراني : الطبقات الكبرى (مصر ١٣٠٠ هـ) .

عروة بن أذينة : شعر عروة . حققه الدكتور يحيى الجبوري (بغداد ١٣٩٠ هـ) .

علي بن الحسين الاصهاني (أبو الفرج) : الأغانى (طبعة الهيئة المصرية العامة ١٣٩٠ هـ)
وطبعة دار الثقافة في بيروت ١٩٥٥ م) .

علي بن الحسين الرنقى : أمالي الرنقى . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء
الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٤) .

علي بن محمد الديلمي : كتاب عظم الألف المؤلف على الام المطوف (القاهرة ١٩٦٢ م)
علي بن محمد (ابن الأثير) : أسد الغابة في معرفة الصحابة (الطبعة الإسلامية في
طهران ١٣٧٧ هـ) .

علي بن يوسف القفطي : إنباء الزوايا . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ) . والمحمديون من الشعراء وأشعارهم . حققه حسن

معمري (نشر دار الهامة بالرياض ١٣٩٠ هـ) .

عياض بن موسى : ترتيب المدارك . حققه الدكتور أحمد بكير محمود (بيروت ١٣٨٤ هـ)
قدامة بن جعفر : نقد الشعر (القسطنطينية ١٣٠٢) .

كمال الدين الدميري : حياة الحيوان الكبرى (القاهرة ١٣١٩)

مؤمن بن حسن الشبلنجي : نور الأبصار (مصر ١٣٣٤ هـ) .

محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) : أعلام الموقعين (مطبعة النيل بمصر) .

محمد بن أبي بعلل : طبقات الحنابلة (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

محمد بن أحمد بن طباطبائي : عيار الشعر . حققه طه الحساجري ومحمد زعلول سلام
(القاهرة ١٩٥٦) .

محمد بن أحمد الذهبي : تاريخ الإسلام (مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ) وتذكرة
الجماظ (حيدر آباد ١٨٩٧) .

والميسر في خبر من غير . بتحقيق الدكتور صلاح الدين

المنجد (الكويت ١٩٦٠) وميزان الاعتدال . بتحقيق علي

البيجاوي (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٨٢ هـ) .

محمد بن أحمد الأبهسي : المستطرف (مطبعة الاستقامة ١٣٧٩ هـ) .

محمد بن إدريس الشافعي : أحكام القرآن . جمعه أحمد بن الحسين البيهقي (مكتبة

نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٧١ هـ) .

والأم (بولاق ١٣٢١) .

المراجع الحديثة

- إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشتاوي وعبد الحميد بوانس وجاسر محمود: زحموا دائرة المعارف الإسلامية ١٣٥٢ هـ .
أحمد تيمور: علي بن أبي طالب شعره وحكمه (القاهرة ١٣٧٨ هـ) .
توفيق الحكيم: فن الأدب (المطبعة النموذجية بالقاهرة) .
عائشة عبدالرحمن: قيم جديدة للأدب العربي (القاهرة ١٩٦٧ م) .
عائض بنية الراداي: شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثاني (لشرة كلية اللغة العربية بالرياض ١٩٧٢ م) .
عبدالحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (القاهرة ١٩٦٨ م) .
عبدالمعز الزير ومحمد الأطرم: شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي (كلية اللغة العربية بالرياض ١٩٧٢) .
عبدالله الحامد: شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين (كلية اللغة العربية بالرياض ١٩٧١ م) .
عبدالمجيد المنسوب: عبدالله بن المبارك (وزارة الأوقاف بالأردن ١٣٩٢ هـ) .

.....

المخطوطات

- أحمد بن أحمد المعجمي: نتيجة الأفكار فيما ينزى للإمام الشافعي من الأشعار .
مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ١٤١٨ أدب .
عبدالله المامقاني: من-ج المقال . مخطوط في جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٢٣ .

وديواته . جمعه عبدالعزیز سيد الأهل (المجلس الأعلى للتوثون

الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٦ هـ)

والرسالة حققها أحمد محمد شاكر (طبعة مصطفي الباني ١٣٥٨ هـ)

محمد بن إسحاق بن النديم : الفهرست (المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ) .

محمد بن اسماعيل البخاري : كتاب التاريخ الكبير (حيدرآباد ١٣٦٥ هـ) .

محمد بن جرير الطبري : تاريخه . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٦٠)

محمد بن خلط (وكيع) : أخبار القضاة (مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٦ هـ) .

محمد بن داود بن الجراح : الورقة (دار المعارف بمصر) .

محمد بن سعد الزهري : الطبقات الكبرى (بيروت ١٣٧٦ هـ)

محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية (القاهرة ١٣٤٩ هـ) .

محمد بن محمد النزالي (أبو حامد) : إحياء علوم الدين (مصطفي الباني ١٣٥٨ هـ) .

محمد بن يزيد البرد : الفاضل . حققه عبدالعزیز الميمني (دار الكتب المصرية ١٣٧٥ هـ)

محمد بن يوسف الكندي : كتاب الولاية والقضاء (بيروت ١٩٠٨ م)

الذهبان بن بشر : شعره . حققه الدكتور يحيى الجبوري (بنداد ١٩٦٨ م) .

يافوت بن عبدالله الحموي : معجم الادباء (مطبعة عيسى اباني ١٣٥٥) .

يحيى بن زعفران النوي : تهذيب الأسماء واللغات (شركة الملاء) ورياض الصالحين .

بتحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت ١٣٩٠ هـ) .

زيد بن محمد الأزدي : تاريخ الموصل . حققه الدكتور علي حبيبة (القاهرة ١٩٦٧ م)

يوسف بن تشرى بردى : النجوم الزاهرة (دار الكتب المصرية ١٣٤٩ هـ) .

يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي : الانتقاء (القاهرة ١٣٥٠ هـ) . وبهجة

المجالس . بتحقيق محمد مرسي الخولي (دار الكتب العربية

١٩٦٢) . وجامع بيان العلم وفضله . حققه عبدالرحمن عثمان

(المكتبة السلفية بالمدينة ١٩٦٨) .

يوسف بن فرغلي (سبط ابن الجوزي) : تذكرة خواص الأمة (التجف ١٣٨٣ هـ)

.....

الفهرس

صفحة

٣

مقدمة

الباب الأول :

الشر : دراسة موضوعية

٦

الفصل الأول : الحكمة .

١ - شر الايمان والعقيدة

١٣

٢ - تأمل وتفكير .

٢٢

٣ - العير

٢٧

٤ - الزهد والمواعظ والأخلاق

٤٩

الفصل الثاني : النزل

١ - نزل مروة بن أدبنة

٥٧

٢ - النسيب بالأزواج

٦٠

٣ - النعتة في نزل الفقهاء

٦٥

الفصل الثالث : الفخر

١ - قيم قديمة جاعلية

٦٩

٢ - قيم قديمة مستمرة

٧٢

٣ - قيم قديمة مجتدة

٧٥

٤ - قيم جديدة

٨٠

الفصل الرابع : موضوعات أخرى

١ - الوصف

٨٨

٢ - النساب

٩٣

٣ - المهجاء

- ٣٩١ -

علي بن الحسن (ابن عساكر) : تاريخ دمشق . مخطوط في دار الكتب برقم ١٠٤١
تاريخ ، تيمور . وفي مهند المخطوطات برقم ١٢٥ تاريخ .
محمد بن محمد الذهبي : سير أعلام النبلاء (القسم الذي ثا يطبع) مخطوط في دار
الكتب برقم ١٢١٩٥ ح .

محمد بن شاذان الكتي : عيون التواريخ . مخطوط بدار الكتب برقم ١٢٩٧ .
محمد بن عمر الرازي : مناقب الإمام الشافعي مخطوط في جامعة القاهرة برقم ٦٠٥٧ .

.....

- ٤ -

الدوريات

مجلة الرسالة س ١ ح ٢٥ وس ١٠ ح ٤٦٩ .

مجلة المصباح س ٣١ ح ١٥٣٦ .

مجلة مجمع الفنون العربية المجلد ٤٤ ، ١/٢ .



- ٣٩٠ -

صفحة

٢١٧	٢ - الشعراء الفقهاء في العصر الأموي
٢٢٨	٣ - أعلام الشعراء الفقهاء في العصر الأموي :
٢٢٨	أ - النعمان بن بشير
٢٤٤	ب - أبو الأسود الدؤلي
٢٦٩	ج - ابن عتبة
٢٧٨	د - مروة بن أذينة
٢٩٤	هـ - سابق البربري
٣٠٣	الفصل الثاني : في العصر العباسي الأول
٣٠٣	١ - الشعراء الفقهاء في العصر العباسي الأول
٣٢٠	٢ - أعلام الشعراء الفقهاء في هذا العصر :
٣٢٠	أ - عبد الله بن المبارك
٣٣٦	ب - الامام الشافعي
٣٧٥	
٣٨٤	

خاتمة
المصادر والمراجع



صفحة

٩٧	٤ - الوفاء
١٠٤	٥ - المدح
	الباب الثاني
١٠٨	الشعر : دراسة فنية ونقدية
١٠٩	الفصل الأول : الأبداع الفني في شعر الفقهاء
١١١	١ - أحاسيس عاطفية
١١٨	٢ - صور شعرية
١٣٥	٣ - خصائص موسيقية
١٤٤	الفصل الثاني : ظاهرة النظم
١٤٤	١ - النزعة المغلقة
١٥٢	٢ - البساطة
١٥٧	الفصل الثالث : شعر الفقهاء والمجتمع
١٥٧	١ - الشعر والحياة
١٦٠	٢ - صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء
١٨٦	٣ - محاولات لإصلاح الانحراف الاجتماعي
١٩٣	الفصل الرابع : الالتزام
١٩٣	١ - الالتزام في الاسلام
١٩٦	٢ - الالتزام في شعر الفقهاء
	الباب الثالث
٢٠٧	الشعراء
٢٠٨	الفصل الأول : في العصر الاسلامي
٢٠٨	١ - العصر الراشدي عهد أولي لبداية شعر الفقهاء